الباب الأول

التنظير

الفصل الأول:

- الأدب والثقافة.
- التجسيد الفني في أدب الأطفال.
- أهمية أدب الأطفال الإسلامي.
- المفهوم والخصائص.
- الأدب ومراحل الطفولة.

الأدب والثقافة

قد يظن بعض الناس أن الثقافة هي غاية ما يرجى مما يقدم للأطفال من نصوص أدبية، لكن ذلك بمفرده لا يمكن أن يبني عقله، ويصقل وجدانه، ويهذب مشاعره، ويرقى بها، ويفهمه عقيدته، ويوثق صلته بدينه ليكون أساس تعامله، فتهيئه تهيئة سوية لمواجهة الحياة، والتفاعل مع متغيراتها، والتعامل مع مشكلاتها، فيتغلب على نقائصها، ويتصدى بالحل الناجح لقضاياها، ويتذوق الجمال فيها، ويمارس الفنون ممارسة تزكي من تفاعله وإيجابيته في هذه الحياة، في حدود خبراته ومستواه، لتتجلى إيجابيته كمسلم.

من هنا يمكن أن تكون الثقافة بمفهومها العام الشامل مدخلاً مناسباً لإضاءة ما نبتغيه من أدب الأطفال الإسلامي.

وما أكثر التعريفات التي وضعت لتحديد مفهوم الثقافة، ولعل تعريف إدوارد تايلور Tylor الذي أشار إليه في مفتتح كتابه «الثقافة البدائية» كان ذا تأثير واضح على كثير من التعريفات التي وردت بعد، فقد عرّفها بقوله: «.. ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات، والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في

مجتمع»[١]، وهكذا تتضمن الثقافة كل الأساليب والأفكار والقيم وأنواع السلوك المختلفة وفي مقدمة ذلك مبادئ العقيدة، وهذا المفهوم الفضفاض يباين الفكرة التي تخص بالثقافة مجموعة الصفوة المتميزة بالمعرفة، مما يضيق مفهوم الثقافة، ولقد كان اتساع هذا المفهوم قريناً بفيض من البحوث والدراسات التي أثرى بها علماء الاجتماع هذا المجال.

وهناك من يقسم الثقافة [*] إلى ثلاثة أقسام: «عموميات» تتمثل في أنماط السلوك والجوانب الحتمية كاللغة والأسرة، وأثرهما عظيم في الأطفال وأدبهم، وتكوين عقيدتهم، و«خصوصيات» يشكلها ما يتميز به قطاع معين من قطاعات المجتمع، ومن هنا ينشأ ما يسمى بالثقافة الفرعية، أو النوعية، كثقافة الأطفال مثلاً، أما القسم الثالث فهو «البديلات» وهذه تتسلل إلى الثقافة نتيجة اتصالها بغيرها من الثقافات الأخرى، ويمثل الإسلام بقيمة ركيزة هامة فيما سبق من أقسام.

---

(١) د. عاطف وصفي «الثقافة والشخصية» دار النهضة العربية للطباعة والنشر -بيروت سنة ١٩٨١م صفحة ٨٠، وكذلك انظر هاري شابير «نظرات في الثقافة» ترجمة د. محمد علي العريان - دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، يناير سنة ١٩٦١م صفحة ١٥، وكذلك ألفت حقي «ثقافة الطفل» مجلة عالم الفكر - الكويت المجلد العاشر العدد الثالث - اكتوبر نوفمبر ديسمبر سنة ١٩٧٥م صفحة ٥٤ .

وانظر د. سيد عويس «دور الأسرة في تكوين ثقافة الطفل» الندوة الدولية لكتاب الطفل سنة ١٩٨٧م- الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٩م.

(*) من تعريفات الثقافة أيضاً أنها «تجريد»، وأنها «تجريد مأخوذ من السلوك الإنساني الملاحظ حسياً ولكنها ليست هي ذلك السلوك» (الثقافة والشخصية).

والثقافة بحكم طبيعتها تنساب كتيار الخليج في تتابع وانتظام مؤثرة في الحياة ومكوناتها، دون أن تراها العيون.

وبرغم أن الثقافة إنسانية وعامة، إذ لا يوجد مجتمع إنساني بدون ثقافة، لكنها في الوقت نفسه تختلف من مجتمع لآخر، بحسب تركيبها وانتظام عناصرها، كما أنها ثابتة ومتغيرة؛ ثابتة بحكم انتقالها من السابقين إلى اللاحقين، ومتغيرة لأن هؤلاء اللاحقين يضيفون إليها ويعدلون فيها، ومن الثوابت التي لا تتغير ويجب الحرص عليها العقائد الإسلامية.

وليس معنى أن ثقافة الأطفال ثقافة نوعية، أنها منفصلة عن الثقافة العامة للمجتمع، فهي جزء منها، وتشترك معها في بعض الخصائص، لا سيما عندما يولي المجتمع أهمية كبيرة لقيمة معينة، فإنها تظهر في ثقافة الأطفال، نتيجة حرص الكبار على تشكيلها بما يتلاءم مع قيم المجتمع وأهدافه، خاصة قيم الدين الإسلامي.

وفي الوقت نفسه فإن ثقافة الأطفال تنفرد بخصائص أخرى[1] منها، قيم ومعايير وعادات، وطرق خاصة في اللعب، والتصرفات والاتجاهات، والمواقف والانفعالات، والأزياء، وغير ذلك مما يشكل ثقافة الأطفال وخصوصية عناصرها وانتظامها

(١) د. هادي نعمان الهيتي «ثقافة الأطفال» سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٢٣ رجب سنة ١٤٠٨هـ - مارس سنة ١٩٨٨م، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ص٣٠.

البنائي، ومن ثم فهي ليست تبسيطاً للثقافة العامة في المجتمع برغم العلاقات الوثيقة بينهما.

وليس جمهور الأطفال متجانساً، فهم مختلفون في أطوار نموهم الجسمي، والعوامل الفاعلة في هذه الأطوار؛ من بيئة وثقافة وخصائص ذاتية وغيرها، لذلك فقد قسمت مرحلة الطفولة إلى أطوار متعاقبة بناء على ذلك؛ هي الميلاد، والطفولة المبكرة، والطفولة المتوسطة، والطفولة المتأخرة، وفي كل طور من هذه الأطوار، تختلف خصائص وحاجات الأطفال وكيفية إشباعها، كما تتباين طبيعة علاقاتهم بمن حولهم من مستوى الاعتماد على غيرهم، إلى شيء من الاستقلال ومحاولة الاعتماد على النفس، كما تختلف محصلتهم اللغوية.. وهكذا، تختلف ثقافاتهم في خصوصيات لصيقة بكل طور، بحيث يمكن أن تشكل ثقافات فرعية، برغم ما يمكن أن يكون مشتركاً بينهم من خصائص عامة تميز جانباً من ثقافة الأطفال أو عومياتها [١]، وتمثل قيم الدين الإسلامي كما أشرت ركيزة هامة في هذا المجال.

وإذا كان الأدب بصفة عامة عنصراً من عناصر الثقافة، فسوف نجد أن أدب الأطفال الإسلامي متنوع المستويات، بناء على ما سبق، فالقصة التي قد تكون مناسبة لمرحلة الطفولة المتأخرة

(١) انظر السابق نفسه صحفة ٢١.

قد تكون غير ملائمة لمرحلة الطفولة المبكرة، من حيث تركيب حدثها مثلاً، والتمثيلية التي تناسب مرحلة الطفولة المبكرة قد لا تشبع حاجات مرحلة الطفولة المتأخرة وهكذا.

وبرغم أن الأدب لون من ألوان الاتصال ونقل المعاني من طرف إلى آخر، لكنه اتصال قوامه الفنية والتجسيد.

وإذا كان الإبداع بعامة عنصراً من عناصر الثقافة ومكوناتها، فالأدب في الوقت نفسه تجسيد لهذه الثقافة بوساطة اللغة، فهو «تشكيل أو تصوير تخيلي للحياة والفكر والوجدان من خلال أبنية لغوية»؛ ففنون الأدب المختلفة تحمل مضمونات مجسدة فنياً خاصة التمسك بقيم الدين الإسلامي، ولهذا كان تأثيرها في الناس قوياً، وذلك مما يجلي أثر الثقافة -والأدب بصفة خاصة- في المتلقي طفلاً كان أم راشداً [١].

وثمة وسائل تضاعف من أثر اللغة المجسّدة، وتثري فاعليتها في جذب اهتمام الطفل، وتحقيق استمرارية اتصاله بالعمل الأدبي، وتشكل حوافز لإثارة اهتمامه به [٢]، منها الصورة والصوت واللون والرسم والحركة، وغير ذلك من الوسائل التي تزيد الفكرة دقة وجلاء وتجسيداً، فهي لغة أخرى غير اللغة المتعارف عليها، لكنها غير كلامية، وتضاعف من أثر اللغة اللفظية عند الإنسان بصفة

(١) انظر د. هادي نعمان الهيتي «ثقافة الأطفال» عالم المعرفة - العدد ١٢٣- رجب سنة ١٤٠٨هـ، مارس سنة ١٩٨٨م صفحة ١٥٥، ١٣٣ .

(٢) السابق نفسه صفحة ١١٥.

عامة، والطفل بصفة خاصة، لأنه بحكم تكوينه، ومستواه العمري والعقلي أكثر احتياجاً لهذه الوسائل، التي تضيء له القضايا، وتقرب له المفهومات وتساعده على صقل مواهبه وتنميتها.

ومن وظائف التجسيد الفني[1] في أدب الأطفال

١- أنه يتيح للعمليات العقلية المعرفية أن تؤدي دورها في إثراء الفكر وإمتاع الوجدان، لا سيما عند الأطفال الذين هم أشد استجابة لعناصر التجسيد اللغوية وغير اللغوية، ما دامت في مستوى خبراتهم، فيستطيعون بفضل هذه العناصر استعادة خبرات سابقة، تتصل وتتفاعل مع الخبرات اللاحقة للإسهام في بناء الطفل الفكري والنفسي.

٢- كما يستطيع الطفل بفضل التجسيد والعوامل المثرية له أن يتخيل «صوراً جديدة مركبة» تجعل إدراكه للمعنى أكثر دقة، وفهمه أكثر عمقاً، واستيعابه أشد إلماماً وإحاطة.

٣- أنه يجذب انتباه الطفل ويهيئه لاستقبال الرسالة المجسَّدة فنياً، فتحل في مركز شعوره، مما يدعم عملية الاتصال الثقافي، ويثري فاعلية العمل الأدبي بالنسبة للطفل المتلقي، وبذلك تتجاوز عملية الاتصال طريقة التلقين بعيوبها التقليدية المعوقة، فيتوحد الطفل مع المواقف التي يشكلها المضمون، دون تقريرية أو قسر،

(١) السابق نفسه من صفحة ١١٥ إلى صفحة ١٢٠.

وذلك من أنسب الوسائل لتقديم وغرس كثير من مبادئ الإسلام في الطفل، كحبه لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ ليُقْبِل على هذه المبادئ برضا واقتناع.

٤- ويستطيع التجسيد الفني أن يقرب المعنويات في صورة محسوسة سواء تم ذلك عن طريق اللغة أو الوسائل المعينة، مما يقرب كثيراً من المفهومات المعنوية والمجردة إلى أذهان الأطفال، كالشجاعة والحب، والإيثار والتعاون، والوفاء ورد الجميل، وغير ذلك من المبادئ والقيم التي تزخر بها التعاليم الدينية الإسلامية.

٥- ولا شك أن نطق الكلمة في حد ذاته قوة مؤثرة بما له من وقع وإيقاع يستثير المشاعر، ويؤثر في السلوك الإنساني، لا سيما عندما تشكل الكلمة لبنة في سياق أو نسق فني، مما يثري دلالتها ويضاعف من إشباع معناها في هذا السياق، بالإضافة إلى أن الصوت عندما تستقبله حاسة السمع يستثير «صوراً ذهنية، من خلال قيام العقل بواحدة أو أكثر من العمليات المعرفية».

٦- ولا شك أن مصاحبة الألوان أو الصور أو الرسوم أو الحركات للكلمات، في الفنون الأدبية المختلفة، مما يستثير اهتمام الأطفال، ويجعلهم يعنون بالتفصيلات، كما أن الصور تنطبع في أذهانهم، وبها يغنى النص، ويتضاعف إيحاؤه [1]، وذلك كلما كانت الصور أكثر اتصالاً بحياتهم.

---

(١) انظر د. نيز اسكاربيك «أدب الطفولة والشباب» ترجمة: د. نجيب غزاوي - مراجعة عيسى عصفور - منشورات وزارة الثقافة دمشق سنة ١٩٨٨ صفحة ١٣٦.

«ويحقق الكتاب المصور التوازن العادل بين النص والصورة، إذ يدعم كلاهما الآخر، بالإضافة إلى أن التعليم والتمتع بالصور جزء من القصة.. بل إن الأطفال قد يستطيعون قراءة معنى الصور بدون أية كلمات، كما يعين تصوير الأفكار الأطفال على إعادة صنع ما اختزنوه من صور، وبعض الكتب المصورة تقود لموضوعات الفن وكتب الأطفال في مستوياتها المختلفة وتفسيراتها» [١].

والحركات لون من الحياة ينضاف إلى الكلمات والصور فيجعلها أكثر تأثيراً وجذباً للانتباه [٢]، «إذ تنقله إلى عوالم لذيذة ساحرة تأخذ بلبه الغض، عندما تتحول الكلمات والأحداث الجامدة إلى حكايات ومغامرات حية ناطقة متحركة».

وهنا نلفت النظر -مع غيرنا من الداعين- إلى خطورة اعتماد الإذاعة المرئية في عالمنا العربي والإسلامي على الرسوم المتحركة الأجنبية، تلك الرسوم التي تجسِّد قصصاً أجنبية مستوحاة من بيئات غير عربية وغير إسلامية، ولا تنسجم أفكارها مع تقاليدنا وأعرافنا، وما ورثناه من صالح تراثنا الذي حافظنا عليه إلى اليوم، وصانه اللاحقون خلفاً عن سلف من

---

(١) Mary Ann Powlin Creative Uses of Children's Lirerature with afore-word by Dr. Marilyn Miller Printed in the United states of America P. 169-170.

(٢) انظر د. عماد زكي مقال «أفلام الصور المتحركة ودورها في حياة الأطفال» كتاب العربي ٢٣ الطفل العربي والمستقبل ١٥ أبريل سنة ١٩٨٩م - الكويت.

أجدادنا، مما يصون إنسانية الإنسان، ويدعم شخصيته، لا سيما في مرحلة النشأة، مما يستوجب على القادرين والمؤهلين من الكُتّاب المبدعين والتقنيين، أن يتعاونوا في هذا المجال، لتقديم أدب الأطفال الذي ينسجم مع تقاليدنا وأعرافنا الإسلامية، ولا يبعد أطفالنا عن الحياة ومتغيراتها.

لكننا في الوقت نفسه ندعو إلى الاستفادة من مختلف الأشكال الفنية لأدب الأطفال، ووسائل التجسيد فيها، وأن توظف لتصل أطفالنا بديننا، وتراثنا وفكرنا وحياتنا المتجددة، وقيمنا الأصيلة، خلال أدب حي للأطفال، لا يغفل الماضي ولا يتجافى عن الحاضر، وإنما يصل بينهما باتزان واعتدال، وينتقل بأطفالنا إلى رؤية مستقبلية تحقق لهم نماء الفكر، وخصوبة الوجدان، واتساع الخيال، ورقي الذوق، وفاعلية المواجهة للقضايا، كما تصل بهم إلى مرحلة الرشد في أمن وأمان.

أهمية أدب الأطفال الإسلامي

طفل اليوم رجل الغد، عليه تعتمد الأُمة، وبه يشتد ساعدها، عندما توكل إليه مسؤوليات بنائها، من هنا كان الاهتمام بتنشئة أطفالنا تنشئة إسلامية تهيئهم لأداء هذا الدور العظيم، وهذا يوضح لنا سر اهتمام الدين الإسلامي بتربية هؤلاء الأبناء، وسلامة تنشئتهم: أجنة وأطفالاً.

ولتحقيق هذا الهدف تعددت الاهتمامات بالطفل، من دراسات نفسية تربوية لمراحل نموه، لتحديد احتياجاته التي يمكن أن تشبع، وتصور اهتماماته التي يجب أن تلبى، ومشكلاته التي نحاول أن نعينه على تجاوزها، وتبصيره بحلولها ذاتياً، أو بمعاونة غيره، ومستوى خياله الذي يجب أن ينمو، والقيم والمثل الإسلامية التي نستطيع أن نؤصلها ونغرسها في نفسه، ومواهبه التي يمكن صقلها وإثراؤها.

وقد أعانت البحوث التربوية والنفسية بمتغيراتها على النهوض بذلك، فتعددت المؤسسات المحلية والدولية[1] التي تولي الطفل عنايتها، كما وظفت أحدث الوسائل التكنولوجية في

(١) يعتبر المجلس العربي للطفولة من أحدث المؤسسات الدولية وقد أنشئ سنة ١٩٨٧م ومقره القاهرة، بجانب كثير من الأنشطة الدولية التي قادتها هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها في العالم كله.

مجالات التربية والتعليم والإعلام، لإنجاح هذه الأهداف، وتعددت الدراسات التي تولي ذلك أقصى الاهتمام.

من ثم فقد برز أدب الأطفال الإسلامي كوسيلة حضارية إنسانية، لتحقيق بناء طفل اليوم ورجل المستقبل، لا سيما والأدبُ الإسلامي بفنونه المختلفة من قصة ومسرحية ونشيد وغيرها غنيٌّ بوسائل التأثير وجذب الانتباه، قادر بمزاياه الفنية والنفسية على أن يشبع اهتمامات الطفل، ويلبي احتياجاته، ويقدم له الغذاء النفسي والفكري الذي رقى به وينميه، فيتحول من حالة الفردية التي يتمركز فيها حول ذاته إلى كائن اجتماعي يغمر الآخرين بعطائه، كما يمكن لأدب الأطفال الإسلامي أن يقدم بعض المعلومات العلمية والفنية والخلقية، من خلال ما يتوافق مع استعدادات الطفل وميوله نحو اللعب، والاكتشاف بنفسه، وترك الحرية له في اختيار ما يجذبه، وما يحبه كي لا تتم عملية التطبيع أو التثقيف بشكل ضاغط يكبت الميول... أو بشكل تلقيني وعظي ينفر [1]...

وهكذا يتحول الطفل من المتعة إلى الاحتمال، ومن الاحتمال إلى المشاركة الوجدانية، ومن المشاركة الوجدانية إلى الإحساس العقلي بشعور الآخرين، وهكذا يسهم «أدب الأطفال الإسلامي»

(١) ذكار الحر: «الطفل العربي وثقافة المجتمع» دار الحداثة -لبنان بيروت ط سنة ١٩٨٤م صفحة ٣٣.

في تكوين الطفل المثابر المخلص الاجتماعي المتعاون [١]، ومن ثم نرسي الدعائم والقواعد الأساسية، التي يبني عليها التنظيم العام لشخصية الكبير، فيما يسمى بالسنوات التكوينية [٢].

إن الأجناس الأدبية «لأدب الأطفال الإسلامي» تستطيع في هذه المرحلة التكوينية، أن تسهم في نقل المعرفة إلى الطفل، بل والتجارب البشرية، كما تتجاوز وظيفتها زيادة الثروة اللغوية إلى تنمية الإحساس بجمال الكلمة، وقوة تأثيرها، وتعينه على فهم التطور البشري بطريقة غير مباشرة، ويمكن أن تكشف له عن سر الحقيقة والجمال، فيتفاعل معهما، وهكذا يصبح أكثر قبولاً للحياة ومتغيراتها والتكيف معها، بل وقيادتها، وبذلك يستطيع أن يؤدي دوره المستقبلي بتحقيق الأهداف المنوطة به في بناء أُمته ومستقبله.

ولا شك أن لأدب الطفل وما يتمتع به من تجسيد دوراً هاماً في غرس كثير من قيم الدين ومبادئه، التي تدعم شخصية الطفل، وتعزز ولاءه لأُمته وأهدافها والحفاظ عليها، كما تدعم قوة انتمائه إليها.

---

(١) د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» ط٢ سنة ١٩٧٦ -مكتبة الأنجلو- القاهرة صفحة ٦٢ .

(٢) د. محمد عماد الدين إسماعيل «الأطفال مرآة المجتمع» سلسلة عالم المعرفة -العدد ٩٩- الكويت، سنة ١٩٨٦م صفحة ٥ .

وذلك للعلاقة الوثيقة بين الكلمة والمعتقد في الإسلام، وهذا مما يبني الحياة ولا يهدمها، لأن الانفصال بين هذين الجانبين يجعل الحياة جحيماً لا يطاق، إذ تفقد قيمتها، باختفاء الصدق والخير فيها، بينما الالتحام والاتصال بين الكلمة والمعتقد وتوافقهما، يحفظ للحياة فاعليتها بقيمها ومبادئها، وتتناغم الحركة الاجتماعية فيها.

ويتجلى المجتمع المسلم الذي يستطيع -عن كفاءة واقتدار- أن يحمل الرسالة الخالدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [1] (الصف:٢،٢).

وبذلك تتضح فاعلية الفن في الحياة، كما يبرز دوره البناء في إقامتها على أُسس سليمة صحيحة، وهو دور يتجاوز كونه وسيلة للترفيه وتزجية الوقت، ليصبح تعبيراً صادقاً عن العقيدة والحياة، معبراً عن آمال الفرد والمجتمع، مجسداً لما بين البشر من محبة وتعاطف وتعاون، داعماً لما بينهم من تراحم وتواصل، كاشفاً عمّا في هذه الحياة السوية من انسجام ووفاق وإخاء محققاً السعادة والأمن لكل من فيها، وما فيها [2].

وفي اتصال الأطفال بهذا الأدب تشكيل لوجداناتهم وصقل لمشاعرهم، وتنشئتهم نشأة سوية صالحة، إذ يألفون الحق

(١) د. نجيب الكيلاني «أدب الأطفال في ضوء الإسلام» صفحة ١٠٥.
(٢) السابق نفسه، صفحة ١٠٥.

والجمال والخير، وذلك أفضل أساس لحياتهم، لا سيما إذا استمر اتصالهم السوي به، وارتباطهم بقيم الدين ومبادئه بعيداً عن زيف الخرافات والانحرافات، والأفكار الضالة المضلة، التي يدسها أعداء الإسلام والمسلمين، وهكذا يصطبغ فكرهم بالمنهج الإسلامي، ويتسم سلوكهم بالطابع الإسلامي.

من ثم فإن أدب الأطفال يجب أن ينهض بما يدعو إليه الإسلام من قيم ومبادئ؛ كحب العلم، وأن السعادة في رضا الله وتقواه وليس في التعلق بالمستحيلات، والسلبية في مواجهة المشكلات والاعتماد على مصباح علاء الدين أو خاتم سليمان، وإنما العمل الجاد هو الذي يحقق الآمال والطموحات.

وفي الوقت نفسه لا بد أن ينمي هذا الأدب خيالهم، ويطلق تفكيرهم وتصوراتهم بصورة بناءة، وليس مجرد تهويم وأوهام، كما يجب أن يسهم في تحقيق الاستقرار والتوازن النفسي لهم، بما يقدم لهم من مسرحيات وقصص ومنظومات شعرية، ذات أبنية فنية تحقق المتعة، وتثري عقولهم بالمبادئ التي أشرنا إليها سابقاً، ففي ذلك عون لهم على فهم الحياة، فهماً سوياً.

المفهوم... والخصائص

إذا كان أدب الأطفال بمعناه العام، يعني الإنتاج العقلي المدون في كتب موجهة لهؤلاء الأطفال، في المقررات الدراسية أو القراءة الحرة، فإننا هنا نهتم بأدب الأطفال الإسلامي بمعناه الخاص، الذي يتضمن الكلام الجيد الجميل الذي يحدث في نفوس هؤلاء الأطفال متعة فنية، كما يسهم في إثراء فكرهم، سواء أكان أدباً شفوياً بالكلام، أم تحريرياً بالكتابة، وقد تحققت فيه مقوماته الخاصة من رعاية للتصور الإسلامي ولقاموس الطفل، وتوافق مع الحصيلة الأسلوبية للسن التي يكتب لها، أو اتصل مضمونه وتكنيكه بمرحلة الطفولة التي يلائمها، ومن أنواعه القصص والمسرحيات والأناشيد والأغنيات [١]، وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية وسائل التجسيد الفني في هذا الأدب ودورها الهام في تحقيق فعالياته وإيجابيته بالنسبة لهؤلاء الأطفال.

وهذا الأدب يعتبر جزءاً من عالم الأدب الأكبر، ويمكن كتابته، وقراءته، ودراسته، وتحليله، وتعلمه، وشيوعه بنفس الطريقة كأدب الكبار [٢]، ولكن هل يوجد نوع من الكتابة خاص بالأطفال،

---

(١) انظر أحمد نجيب «أدب الأطفال والتربية الإبداعية» الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٧ حول الندوة العلمية لأدب الطفل والقراءة ١٠، ١١ ديسمبر ١٩٨٧م صفحة ٦٧، ٦٨، وكذلك انظر هادي نعمان الهيتي «ثقافة الأطفال» صفحة ١٥٥ وكذلك انظر د. علي الحديدي «محنة أدب الأطفال» كتاب العربي ٢٣-١٥ أبريل ١٩٨٩ صفحة ١٦٩.

(٢) Margarit R. Marshall An Introduction to the world at children's Books 2nd Edition P. 60.

مناسب لهم؟ نعم، ولكن مفهوم كلمة «مناسب» يتخذ دلالات عدة، لعل أولها التناسب الأخلاقي الإسلامي، فهناك بعض الموضوعات التي يجب أن نقي أطفالنا منها، وأن نحافظ عليهم ضدها، كبعض آراء البالغين والكبار التي قد تفسد أخلاق هؤلاء الأطفال، أو تكون غير سارة، أو جنسية [١]، وبصفة عامة تغفل التصور الإسلامي للكون والحياة.

وقد يكون المراد بالتناسب هنا المقام التعليمي، إذ نجد بعض الأشكال الأدبية أو النماذج الفنية تتجاوز مستوى الأطفال الفكري، لعمق القضايا المتضمنة، أو لارتفاع أساليب التعبير، مما يتطلب مستوى قرائياً معيناً يرتبط بتطور الطفل الفكري، وخبرته المحتلمة بالأماكن والناس والأحداث والمشاعر [٢].

وإذا كان الأدب الإسلامي يتخذ من الكلمة وسيلة للتعبير الجميل. فيحقق غايات لعل من أهمها ترسيخ العقيدة وثراء الفكر ومتعة الوجدان، فإن أدب الأطفال يتجاوز هذا المفهوم من حيث الوسائل، وإن كان يشترك معه في الغايات، أما من حيث الوسائل التعبيرية لأدب الطفل فمنها الكلمة والنغمة والرسم والصورة متحركة وثابتة -كما أشرت من قبل-، وقد تنفرد الأخيرة بكتب الطفل في سنيه الأولى، لتصبح الوسيلة الأثيرة لديه، والمناسبة

(١) السابق نفسه صفحة ٦١.
(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

لحمل بعض الأفكار التي يمكن أن تستثير عقله وتثري وجدانه، فتحرك استجاباته للتلقي والمشاركة بإيجابية فيما حوله، وما يعرض عليه، إذ يعرض أدب الطفل عليه ما يشبع اهتماماته ويرضي حاجاته ويواكب نموه وما يتطلبه، كما يعكس له مشكلاته، ومشكلات مَنْ هم في مثل سنه، ويعينه على استبصار الحلول لهذه المشكلات برفق وهوادة، فيتغلب على ما يقلقه، أو يخفف من توتراته في مواجهة المواقف المختلفة، كما يهيِّئ له في يسر وسهولة فرص الاستمتاع بما في الكون من عجب وجمال وجلال[1]، ويتدرج ذلك حسب نمو الطفل العقلي، ومدى استعداده لتقبل المتغيرات، وإدراك بعض جوانب قدرة الخالق فيما أبدع، دون أن نتجاوز به حدود الخبرة الدارجة، سواء كان هذا الأدب مرتبطاً بتجاربه الحسية وخبراته المباشرة، وما تقدمه له الحياة من الوقائع اليومية المألوفة في بيته، أو كان أدباً يحاول الامتداد إلى ما وراء حدود الواقع دون أن يتجاوز المستوى المعرفي المألوف لإدراكاته، بغية تنمية خيال الطفل، أو كان أدباً يعكس الجديد في العالم ليستثير في الطفل رؤية أبعاد جديدة لهذا العالم فيما يسمى بأدب الخيال العلمي، وتمثل مبادئ الدين الإسلامي أهم الركائز التي يجب أن تحملها المضمونات التي يقدمها هذا الأدب الإسلامي.

(١) انظر محمد محسن الصاوي كتاب «الموسم الثقافي» ١٩٨٥/٨٤ معهد التربية للمعلين بالكويت سنة ١٩٨٦ من صفحة ٩١ إلى صفحة ١٢٣.

ويمكن أن نشير في ضوء ما سبق إلى بعض خصائص أدب الأطفال التي توصلت إليها كثير من الدراسات والبحوث النفسية، بحيث إذا توفرت هذه الخصائص في الأعمال الأدبية، فإنها يمكن أن تجذب انتباه الأطفال، وتحظى بإقبالهم، ومحبتهم، وتؤثر بقوة في عقولهم ووجداناتهم، وبرغم أنها خصائص عامة، لكنها تتفاوت في الدرجة حسب نمو الطفل وسني حياته.

ويمكن أن يكون التقسيم الثلاثي لفترة الطفولة؛ من مبكرة إلى متوسطة ثم متأخرة، أجدى في بيان الخصائص النفسية والفنية لما يجب أن تكون عليه كتب أدب الأطفال، لكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث، لأن تقسيم هذه الخصائص حسب سنوات الطفولة عاماً بعد عام قد لا يكون دقيقاً، فهناك بعض الأطفال الذين قد يتجاوز عمرهم العقلي عمرهم الزمني، كما أن بعض الخصائص قد تتداخل وتمتد خلال أكثر من عام، ومن ثم فربما تتداخل مراحل هذا التقسيم.

الفصل الثاني:

ـ الأدب ومراحل الطفولة

- مرحلة الطفولة الأولى (١ـ٣)
- مرحلة الطفولة المبكرة (الطفولة الثانية) من (٣ـ٦سنوات)
- مرحلة الطفولة المتوسطة (أو الثالثة) من (٧ـ٩ سنوات) .
- مرحلة الطفولة المتأخرة من (٩ـ١٢سنة) تقريباً .

الأدب ومراحل الطفولة

أولاً: في مرحلة الطفولة الأولى (١-٣ سنوات)

يمكن أن نعتبر المناغاة أول قصة في حياة الطفل وهو يدخل عالم الكلام، وبرغم أنه لا يفهم كلمة منها، لكنه يستجيب لنغمات كلمات أُمه القصيرة المفرحة، لعباً بأطرافه، وترديداً لأصوات هي أقرب ما تكون للحروف المتحركة بابابا-ماماما، في ظروف أشبه بظروف المناجاة بين الأحباء، أو هديل الحمام [١]، وذلك في السنة الأولى.

وبعد أن تمر السنة الثانية تكون قد نمت قدرته على الاستماع، والربط بين بعض الأصوات والأفكار والمعاني التي تتمشى معها، ومن ثم تفسير بعض الكلمات واستعمالها، كما يصدر عنه من الأفعال ما يعد دليلاً على ربطه بين أصوات الكلمات ومعانيها، وإن كان الكلام والفعل بالنسبة له شيئاً واحداً[٢]، وفي هذه المرحلة تبدأ اللغة في النمو، كما تنمو حواسه، وتتطور حركاته [٣].

---

(١) انظر د. علي الحديدي «في أدب الأطفال» صفحة ٨١، وكذلك د. محمد عماد الدين إسماعيل «الأطفال مرآة المجتمع» صفحة ١١١.

(٢) د. علي الحديدي في أدب الأطفال صفحة ٨٢.

(٣) انظر د. غسان يعقوب «تطور الطفل عند بياجيه» دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٨٢، صفحة ٧٣، ٨٠.

ويجب أن ينتهز الكبار حب الأطفال وانشغالهم بالكلمات وأصواتها، فيشبعون هذه الرغبة لديهم، بترديد الكلمات وبتقديم الكتب المناسبة لهم، لتعلم كلمات وألفاظ جديدة أكثر، بحيث تتم عملية التهيئة لتعلم القراءة في جو يشعر بالسعادة، حتى ينتقل الطفل من مرحلة الاستماع إلى مرحلة القراءة -بسهولة ويسر، وقد تكونت لديه بعض المهارات القرائية.

ومن المناسب هنا محاولة تلقين الطفل كلمة التوحيد [١]، حتى يألفها ترديداً فذلك من سنن الإسلام، لتبدأ عقيدته في الرسوخ، وأن تكون بعض قصار السور مجالاً من مجالات القراءة فقصر جملها يعينه على تنمية مقدرته القرائية.

والكتاب الأول للطفل يجب أن تتحمل أوراقه عبث الأطفال، ويمكن أن يكون صوراً للأشياء المألوفة لديهم، كاللُّعب والملابس والحيوانات والطيور، بشرط أن تكون واضحة وبسيطة، بحيث يتعرف عليها الطفل بسهولة، ودون تكثيف للصور في الصفحة الواحدة، وقد يتضمن هذا الكتاب مادة قصصية بسيطة، حيث إن تتبع خط سير قصة معينة قد لا يبدأ قبل حوالي سن الخامسة[٢]، وهو يدرك -في هذه السن- المشاهد كما لو كان كل منها مستقلاً عن الآخر.

---

(١) محمد حسن بريغش «أدب الأطفال تربية ومسؤولية» ط١ سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، المنصورة ص٨١.

(٢) الأطفال مرآة المجتمع صفحة ٣٣٥، صفحة ٣٣٧.

وفي منتصف السنة الثالثة تقريباً يستخدم حواسه لاختبار البيئة من حوله، وتصبح معرفة الطفل عن طريق الاستعمال غالباً، فالكرسي للجلوس، والقلم للكتابة، وهنا تأخذ الأشياء اهتماماً خاصاً، لأنها تصبح وسائله في التعامل مع بيئته ليخوض تجارب العالم التي يعرفها، فالكرسي يمكن أن يصبح سيارة كسيارة والده، وأي عود خشبي يمكن أن يركبه ليصبح حصاناً، والعروسة (الدمية) تصبح رضيعاً يُهدهد، وهكذا يكون لعبه تكراراً لنشاطه في هذه السن [١]، كما يلمس بعض العلاقات الأُسرية ويختلط بالأطفال، ويقلد الكبار في إقامة بعض الشعائر كالصلاة.

ثانياً: مرحلة الطفولة المبكرة (الطفولة الثانية) من (٣-٦سنوات)

وتتميز بما يسميه بياجيه الذكاء الحدسي، وهو يعني لديه «المعرفة المباشرة للشيء دون - تدخل العقل أو المنطق أو البرهان»[٢] فالطفل برغم تطوره في هذه المرحلة عن سابقتها من حيث اتساع لغته على نحو ما، مما يمكنه من الاتصال بالحياة، والاحتكاك بالآخرين ويحقق قدراً من الاندماج الاجتماعي نتيجة تفاعله مع المجتمع في بعض فعالياته، لكنه «يبقى عاجزاً عن تقديم البراهين وإعطاء الأدلة لإثبات رأي أو فكرة، أو لإقناع الآخر بما يقول أو يريد»، وإن كان يحاول أن يؤكد أحياناً،

(١) د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» صفحة ٨٥ وما بعدها.
(٢) د. غسان يعقوب «تطور الطفل عند بياجيه» دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٨٢ صفحة ٨١.

ولكـن دون إثبات أو تحليل منطقي، أو إدراك للعلاقات المتبادلة، أو العكسية، التي تتضح في ترتيب الأشياء، أو إعادة ترتيبها [١].

ومن مزايا هذه المرحلة أيضاً وضوح التصور الذهني لدى الطفل، والقدرة على التفكير، وفهم بعض الرموز والمعاني القائمة في اللغة والكلام، وإن كان بياجيه لم يقيد هذه الميزة بمستوى معين من التحقق أو الوجود، مكتفياً بجعلها نتيجة للنمو الذهني في هذه المرحلة، وهو نمو يجب أن يستثمر في اتصال الطفل بالقرآن الكريم تدريجياً.

ومن مزايا التطور الذهني في هذه المرحلة أيضاً مقدرة الطفل على الإدراك المسبق للفعل وتصوره أو تمثله ذهنياً.

ويمكن أن تضيء فكرة عدم إدراك الطفل للعلاقات المتبادلة أو العكسية طبيعة الفنون الأدبية، التي تناسب الأطفال في هذه المرحلة، فالقصة - على سبيل المثال- التي تتلاءم مع التطور الذهني لهذه المرحلة هي القصة ذات الحدث الواضح البسيط، البعيد عن التركيب وتعقد العلاقات الفنية، فيكفي أن يكون الحدث مبيناً على علاقة واحدة، حتى يتمكن أطفال هذه المرحلة السنية من استيعاب القصة ومتابعتها، والاستفادة منها ثقافياً ووجدانياً، ففكرة «رد الجميل» في قصة «الكلب والحمامة» لأحمد

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها وما بعدها.

شوقي[١]، قد تكون غير ملائمة بهذه الصورة لهذه السن، نظراً لأن الحدث فيها يتكون من علاقتين: الأولى بين الحمامة والكلب عندما أيقظته من نومه قبل مهاجمة الثعبان له، فأنقذت حياته، والعلاقة الثانية تتمثل في رد الكلب الجميل لها عندما رأى الصياد قادماً، في مرة أخرى، فأدركت الحمامة الخطر وطارت فنجت، فالحدث بهذا التعقيد قد يكون أنسب لأطفال المرحلة السنية التالية وهي الطفولة المتأخرة من (٩-١٢سنة) نظراً لنموهم الذهني، وتطورهم العقلي والمعرفي، بل إن أحد هذين المستويين السابقين للحدث، أو إحدى هاتين العلاقتين السابقتين المشكلتين للحدث، تكفي فقط لأطفال هذه المرحلة السنية، وهي الطفولة الثانية أو المبكرة، حيث يمكنهم استيعاب هذه العلاقة الواحدة، أو تصور مواقفها، وفهم مغزاها كنوع من فعل الخير، ومساعدة الأشخاص بعضهم لبعض، وتلك فكرة أخلاقية يدعو إليها ديننا الحنيف، وحبذا لو حاول الأدب الإسلامي غرسها في أطفالنا بهذه الوسيلة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وعلماء النفس والتربية حين درسوا مراحل النمو العقلي والوجداني للطفل، وجدوا أن هناك بعض الخصائص النفسية التي لو أشبعتها القصة لاجتذبت الطفل إليها، لا سيما في هذه

(١) انظر «ديوان شوقي للأطفال» إعداد وتقديم عبد التواب يوسف -دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٤م صفحة ٨٤.

السن المبكرة، من الخصائص: الإحساس بالافتقاد والاستعادة، فالطفل مرتبط بأُمه يفرح لقربها منه ويحزن لبعدها عنه، ويسر إذا عادت إليه، فإذا ما قدمت له القصة التي تتضمن افتقاد شيء ثم استعادته، فإنها سوف تدخل البهجة على نفسه، وبالتالي يستوعب ما فيها من أهداف أخلاقية إسلامية يناسب مستواها هذه السن، كما يستمتع بما فيها من لمسات فنية جمالية تتصل بنمو الحدث والتشويق مثلاً.

وإذا ما واجه الطفل إحباطاً من أبويه ونظرائه ينشأ لديه إحساس بالحاجة إلى الرفيق المثالي الذي يرتاح إليه، ويملأ عزلته تعويضاً عمّا افتقده في منزله، ومن ثم فإن قصة تتضمن صداقة بين شخصين بشراً أو حيوانات، بحيث يجد كل منهما في صاحبه العون والرعاية والمؤازرة والأنس، يمكن أن تشبع لدى هذا الطفل إحساسه بالحاجة إلى الرفيق المثالي، أو على الأقل ترضي هذا الإحساس بما يجعل الطفل يقبل على مثل هذه القصة، وما تتضمنه من قيم ومبادئ إسلامية يراد غرسها في نفسه، بالإضافة إلى الراحة والمتعة التي تنتج من إشباع هذا الاهتمام.

وربما كان الإحساس لدى الكبار بوجوب تحقيق العدالة وهي قيمة إسلامية هامة، وتطبيق القوانين، منشؤه من الصغر، فالطفل في السنة الخامسة تقريباً ينشأ لديه إحساس بوجوب العدل، وعقاب المذنب، من هنا فهو يستريح لقصة يثاب فيها الخيّر، ويعاقب المسيء، بل إن المكافأة على الأفعال السوية التي

تبرزها للطفل قصة من القصص مما يستثير لديه فعل الخير، والحرص على العدل والإنجاز كقيمة إسلامية ومبدأ [١] ديني، وفي القصص القرآني، وسيرة المصطفىﷺ وأفعال صحابته - رضي الله عنهم- نماذج كثيرة تحقق ذلك الإحساس، الذي سوف توضحه نماذج الأدب الإسلامي في الفصول القادمة.

والطفل في هذه المرحلة قد يقارن نفسه بالراشدين في بيئته، فيشعر بضعف الحيلة، وقلة المعرفة، لكنه يتوق إلى امتلاك عناصر القوة والاقتدار التي تضمن له التفوق، والقيام بدور الكبار، من ثم فإن القصة التي تكشف أشخاصها عن تفوق الصغير، ونجاحه فيما قد لا ينجح فيه بعض الكبار، مما يرضي هذا الإحساس بالتفوق لديه، فينجذب إليها، ويتسلل ما فيها من قيم إلى نفسه وأعماقه.

وإذا كانت حياة الطفل في سنيه الأولى امتداداً لمرحلة ما قبل ميلاده من حيث التصاقه بأُمه، فإنه يبدأ في هذه المرحلة في الابتعاد تدريجياً عنها، اعتماداً على نفسه، كما يوسع من علاقاته، في محاولة للخروج عن خط أُسرته، واعتماده على أبويه، وهنا ينمو لديه إحساس بالاستقلال والاعتداد بشخصيته، وذلك قبيل السنة السادسة، ويقوي هذا الإحساس بعد هذه السن لدرجة العناد أحياناً، لذا فإن كل قصة تعلي من استقلال الشخصية إنساناً أو حيواناً، وتحقيقهما لما يريدانه بفضل تفكيرهما وقوتهما، ووصولهما إلى غايتهما اعتماداً على مقدرتهما، لما يرضي عند

(١) انظر محمد محسن الصاوي كتاب «الموسم الثقافي» ٨٤/٨٥ مرجع سابق.

الطفل خيال الاستقلال عن الأسرة، ويدعم شخصيته لأنها تتوافق مع مرحلة بداية وثوقه بنفسه، وثوقاً قد يصل إلى مرحلة الاعتزاز والفخر بقدراته، ويصبح تدخل الآخرين في شؤونه حرماناً له من التمتع بشعور الاستقلال، ومن هنا فهو يغار على ممتلكاته، ويحرسها بنفسه تأكيداً لذاته.

والطفل في منتصف هذه المرحلة لا يستطيع أن يميز بين الخيال والواقع بدقة، بل قد يخلط بينهما [١]، وإذا كان يندفع من نشاط لآخر فإن قدرته على الملاحظة والتركيز وإدراك التفاصيل تبدأ في التدرج، من هنا فقد ترضيه قصة تدور حوله، أو حول مَنْ هم في سنه، ونفس تجاربه، وفي حدود بيئته، بصدق وأمانة، وسوف يوضح ذلك كثير من النماذج الإسلامية في الفصول القادمة إن شاء الله.

واقتران الفكرة بالصورة التي توضحها مما يمتع الطفل ويستحوذ على اهتمامه وانتباهه، من هنا فمهمة الأم والمدرِّسة والمربية تحتاج إلى مجهود، لتهيئة الجو المناسب للقصة ونجاحها، ولا بد أن تستقل كل صورة بفكرة، بحيث تكون كاملة وليست جزءاً من صورة، حتى تعطي انفعالاً واضحاً محدداً [٢]، وحبذا لو تم ذلك بالحركة التي تجسده، فالفرح مثلاً يوضحه بالابتسام أو التصفيق، بينما الحزن قد يكشف عنه العبوس والجمود.

(١) ذكاء الحر الطفل العربي وثقافة المجتمع ص٤٦.
(٢) انظر د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» ص٩١ وما بعدها.

وفي نهاية هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يتعامل مع أكثر من فكرة ويربط بينها، وقد يتعاون مع غيره في اللعب فيكونون فصلاً (المدرس أو المدرسة وتلاميذهما)، أو عيادة طبية (الطبيب ومرضاه)، أو بقالة (البائع والمشترين) وهكذا، وإذا كانت القصة في منتصف هذه المرحلة لا تتجاوز الوصف، من ثم فقد تكون بلا عقدة، فإن القصة الملائمة لنهاية هذه المرحلة قد تتكون من حدث بسيط لينتهي بعقدة بسيطة وسهلة أيضاً، كما قد تتطور طبيعة الشخصيات من نوعيات لصيقة ببيئة الأطفال كالأب والأم والإخوة، إلى شخصيات ليست لصيقة ببيئتهم، لكنها مألوفة لديهم كالمدرسين والزملاء والضيوف والأصدقاء.

وتحريك الجمادات مما يستثير الأطفال ويجذب انتباههم، كما أشرنا سابقاً [١] -وكلما كانت القصة متضمنة لمواقف حيوية يمرون بها، بما فيها من مآزق ومشاكسات ومعاكسات، فإنها تكون أكثر جذباً لهم، لا سيما مواجهة «الولد الشقي»[٢] لنتائج أعماله، وحبذا لو تجلت القيمة الإسلامية كحل لإحداث التوازن المطلوب، وفض المشكل القائم.

(١) انظر ص١٤ من هذا الكتاب.
(٢) د. علي الحديدي في «أدب الطفل» ص٩٥.

مرحلة الطفولة المتوسطة أو الثالثة (من ٧-٩ سنوات تقريباً)

في بداية هذه المرحلة تنمو مقدرة الطفل على التركيز، كما يطول مدى الانتباه لديه تدريجياً، ويمكنه أن يكتسب مهارات عدة في القراءة، بل ويستطيع الاستغراق فيها في نهاية هذه المرحلة، وقد تصبح هواية ممتعة له، بحيث تتنوع هذه القراءات، وهنا يصبح القرآن الكريم -خاصة قصار السور والآيات المتضمنة بعض العناصر القصصية خير زاد يقدم للطفل كسورة «الفيل» و«المسد» وغيرهما، بجانب نماذج الأدب الإسلامي. كما يمكنه أن يتقن الكتابة، ويتميز بحب الاستطلاع، وينمو خياله، بحيث يصبح قادراً على التخيل [٣٤]، الذي يصير من بين وسائله في التعرف على ما وراء الطبيعة والبيئة المحيطة به، من هنا يمكن أن يتقبل ويستمع إلى بعض قصص كليلة ودمنة، وبعض قصص ألف ليلة وليلة، بل وبعض الأساطير التي تناسب سنه، وعلينا أن نخبرهم بأن هذه القصص لم تقع وإنما هي مجرد خيال، لا سيما عندما يدفعهم حب الاستطلاع إلى معرفة حقيقة ما يحكى لهم، أو ما يتمكنون من قراءته.

وكلما كانت القصة ممثلة كانت أكثر جذباً لهم، وبرغم تقبلهم لبعض القصص التاريخية، لكنهم قد لا يدركون الفهم الدقيق للتسلسل الزمني إلاّ في نهاية هذه المرحلة، برغم إدراكهم للمواقف المتناقضة والمتباينة.

---

(٣٤) انظر السابق نفسه ص٩٧، ٩٨ وكذلك: «الطفل العربي وثقافة المجتمع» ص٤٦.

وفي هذه المرحلة يتقبل القصص التي تشبع لديه حب العدل وتطبيق القوانين، كما تزداد حساسيتهم للنقد، مما يجعلهم يقبلون على القصص التي يعاقب فيها المذنب [١]، ويثاب المحسن، كما يقوي اتصاله بالرفاق في جماعات للعب أو العمل تأكيداً لذاته، ومن ثم فإن القصص التي تدعم استقلاله عن الكبار تكون محببة إليه، لكن الأطفال برغم ذلك يكونون بحاجة إلى رعاية الكبار التي لا تحد من استقلالهم، كما يكونون بحاجة إلى عطف الكبار الذي لا يفقدهم التوازن بين نشدان الاستقلال عن الكبار، والرغبة في التمتع بحبهم وعطفهم.

وفي نهاية هذه المرحلة أيضاً يتضح تباين الاهتمامات بين البنين والبنات، ومن ثم فهم بحاجة إلى أدب إسلامي يواجه هذا التباين الذي قد يطبع نشاطهم بطابع النوع [٢].

ويلاحظ أن الأطفال في هذه المرحلة يستمتعون بكتب المسلسلات والألغاز، وتتضح لديهم القدرة على تقبل المغامرات الخيالية، وسير الأبطال، والحياة في ماضي شعوبهم، وغيرهم من الشعوب، كما يصبح اقتناؤهم الكتب في هذه المرحلة -لا سيما في نهايتها- شيئاً محبباً لديهم، وخاصة الكتب التي تشبع اهتماماتهم بإجاباتها على ما يدور في أذهانهم من أسئلة

(١) انظر محمد محسن الصاوي كتاب «الموسم الثقافي» ٨٥/٨٤ لمعهد التربية للمعلمين بالكويت ط١٩٨٦ ص١٠١.

(٢) د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» ص٩٩.

واستفسارات[١]. وفيما سوف يأتي من نماذج الأدب الإسلامي في الفصول القادمة ما يوضح ذلك.

مرحلة الطفولة المتأخرة (٩-١٢ سنة تقريباً)

هذه المرحلة قد تسبق البلوغ، وهي امتداد ونمو للمرحلة السابقة من حيث تنوع معدل النمو الجسماني، وتنوع الاهتمامات بين البنين والبنات، فالنمو الجسماني عند البنات أكثر وضوحاً وأسبق، كما أن اهتمامهم جميعاً بالقراءة يزداد، لا سيما الكتب التي تتصل باهتماماتهم في هذه المرحلة كالقصص العالمية، والخيال التاريخي، كما يستطيع الطفل متابعة المشكلات من وجهات نظر متعددة، وقراءة الأدب ذي الخيال الخصب نوعاً ما.

وطفل هذه المرحلة قد يكون أكثر خروجاً عن خط الأُسرة، والإحساس بخيال الاستقلال عنها، كما يوسع من علاقاته وانتماءاته، ومن ثم فهو بحاجة إلى أدب إسلامي يزوده بالفهم السليم للعلاقات الأُسرية، ومتغيراتها، كما يساعده على اختيار القدوة والمثل الأعلى، واختيار الرفيق المثالي تعويضاً عن ابتعاده عن والديه، وتأكيداً لاعتماده على نفسه، وإثباتاً لذاته، كما يزوده هذا الأدب بكثير من قيم الدين الإسلامي التي تناسب هذه المرحلة، والتي تتصل بالعبادات والمعاملات كمصارف الزكاة، وعلاقات البيع والشراء.

---

(١) انظر السابق ونفس الصفحة وكذلك محمد محسن الصاوي محاضرات الموسم الثقافي ١٩٨٥/٨٤م لمعهد المعلمين بالكويت ط١٩٨٦ ص١١٥ .

وحيث إنه يتهيأ لأخذ دوره في الحياة، فحبذا لو قدمنا له أدباً وكتباً تزوده بمعلومات عن المهن المختلفة وبأسلوب قصصي مثلاً حتى يستطيع أن يكون تصوراً سليماً عن مستقبله المهني [١].

وفي هذه المرحلة أيضاً يميل الطفل إلى المغامرة والبطولة والمناقشة والشجاعة، ولذلك فهو بحاجة إلى أدب يشبع هذه الميول كالقصة البوليسية، وقصص الحروب، والمخاطرات والمغامرات، لكنها يجب أن تكون ذات أهداف إنسانية، وقيم شريفة، تزكي إحساسه بالأخلاق[٢]، وتعينه على التوافق مع بيئته ومجتمعه وأُمته كقصص أبطال المسلمين: الرسول - ﷺ - ، وصحابته، وصلاح الدين وغيرهم، وقصص المكتشفين والرحالة سواء في ذلك، ما كان حقيقياً أو متخيلاً.

ويجب أن يرقى البناء الفني للقصة بما يتناسب مع هذا النمو الجسمي والعقلي، وبما يعلي من إدراكهم للجمال الفني.

(١) انظر السابق نفسه ص١٠٢.

(٢) السابق نفسه وكذلك انظر «الطفل العربي وثقافة المجتمع» ص٤٧.

الفصل الثالث:

مصادر أدب الأطفال

أولاً: المصادر الإسلامية

ثانياً: المصادر التراثية.

ثالثاً: الترجمات.

رابعاً: المتغيرات.

مصادر أدب الأطفال

تتعدد مصادر أدب الأطفال، التي يفيد منها الكُتّاب، كما تتباين درجة توظيف المادة المستثمرة، وتختلف وسائل هذا التوظيف، لكننا نستطيع أن نناقش أربعة مصادر يمكن أن تكون مستوعبة لكثير منها، وهي المصادر الإسلامية، والمصادر التراثية، والترجمات، والمتغيرات، وإذا كان المصدران الأولان ينتميان إلى الثوابت، فإن المصدرين الأخيرين ينتميان إلى المستجدات، وتأثيرات هذه المصادر جميعها جلية في الثقافة بصفة عامة وأدب الأطفال بصفة خاصة، مما يؤكد علاقة التفاعل بينهما.

ولا يعني هذا التحديد انفراد مصدر واحد بكتاب من كتب أدب الأطفال دون غيره، فهذه المصادر تتباين تأثيراتها في هذا المجال، بحيث إننا قد نجد كتاباً يمكن أن يتصل بهذه المصارد جميعها أو بعضها، لكن الذي لا شك فيه، أن أي كتاب من كتب أدب الأطفال يغلب عليه أحد هذه المصادر، وإن كان متأثراً بغيره، وبناء على ذلك كان تحديدها بأربعة مصادر.

أولاً: المصادر الإسلامية:

تتعدد المصادر الإسلامية التي يفيد منها كتاب أدب الأطفال، كما تتباين سبل الاستفادة، وفي مقدمة هذه المصادر.

١- القرآن الكريم:

ويتميز هذا المصدر بالثراء الفني والموضوعي، ويمتاح منه كثير من الكُتّاب في أدب الأطفال، بحسب توظيفهم للمادة الموجودة فيه، فقصص القرآن الكريم بما تتضمنه من ملامح فنية تجسد كثيراً من المبادئ الأخلاقية كالصبر، والثبات على المبدأ، والتضحية من أجله، والدفاع عن الحق، ونصرة المظلومين، وهداية الضالين وغير ذلك، وكلها قيم ومبادئ يمكن بوسائل العرض الفنية أن تشبع حاجات الأطفال، لا سيما إذا وجدت المواهب القادرة على حسن التوظيف، واستثمار هذه الجوانب في أعمال فنية ناضجة واعية تناسب الأطفال، فتغذي اهتماماتهم في هذه المراحل الباكرة من العمر، فيقبلون بحب وشغف على القصص التي توحي بمثل هذه المبادئ، إذ تحمل كثير من قصص القرآن الكريم من البشرى، وانتصار الحق، وحسن الجزاء، وسلامة العاقبة، ما يملأ نفوس الأطفال ثقة بهذه المبادئ، فترضي لديهم كثيراً من الاتجاهات مثل وجوب حسن الجزاء للمخلصين، وعقاب غيرهم، كنتيجة لخيرية الأولين، واستمرار سعيهم الدؤوب نحو كل ما يحقق الخير والسعادة، للفرد والمجتمع.

ويمكن للقصص القرآني إذا أحسن استثماره فنياً، وتوظيفه فكرياً وثقافياً في هذا المجال، أن يستثير لدى الأطفال من الخيال ما ينمي لديهم هذا الاتجاه، فيعينهم على إذكاء تصوراتهم، واستحضار كثير من الصور التي تنمي خيالهم، مما يساعدهم

على حسن مواجهة الحياة بمشكلاتها، والتفكير السليم في قضاياها والتمتع بمظاهر الجمال السوية في الحياة.

وإذا كان الجانب الوعظي التقريري -وهو إحدى وسائل التأثير- مناسباً للإنسان الراشد في بعض مراحل عمره، فإن مثل هذا الجانب يمكن أن يُقدم فنياً للأطفال في أدبهم، مما يهيئهم لتقبله وحسن الاستفادة منه.

وفي أخبار الرسل -عليهم السلام- والسابقين، وما أكثرها في القرآن الكريم، ما يعين على تشكيل عنصر الحكاية في قصص فني لأدب الأطفال، يمكن من خلاله تحقيق عنصر إمتاع الوجدان، وإثراء الفكر للأطفال، في مراحل عمرهم المختلفة، وهنا نلفت النظر إلى ما في القرآن الكريم من سلاسة العرض وتنوعه، وبساطة العقدة، ومنطقية حلها وفنيته، وهي جوانب بنائية، حبذا لو أحسن الاقتداء بيسرها وبساطتها، واستثمارها في الأشكال الفنية المختلفة التي تؤلف لأدب الأطفال، في مستوياته المتعددة.

وقد ألّفت عدة كتب وسلاسل قصصية حاولت تقديم هذه الجوانب في أدب الأطفال، فتحرى كتابها القضايا الإنسانية، وأبرزوا المبادئ الأخلاقية في شكل فني ملائم، فأحمد شوقي مثلاً وظف فنياً سفينة نوح عليه السلام في تسع قصص مختلفة للأطفال، كما استثمر في ثلاث أخرى ما عرف عن سيدنا

سليمان عليه السلام، ومعرفته لغة الطير[١]، وقد حاول شوقي بذلك تثبيت كثير من قيم الوفاء، وحُسن الخلق، والأمانة والتواضع في نفوس الأطفال، وإمتاعهم وتسليتهم، وإذكاء الإحساس بالنغم لديهم، وإثراء حصيلتهم اللغوية.

ومن المجموعات التي يتضح فيها هذا الاتجاه - وهو الاستفادة من القرآن الكريم في أدب الأطفال - بعض نماذج «مجموعة القصص الدينية» بإشراف الأستاذ محمد أحمد برانق، ومنها قابيل وهابيل، وسبأ، وذو القرنين، وموسى والخضر، وغير ذلك، وقد بلغت عشرين قصة، وهي تناسب أطفال المرحلتين المتوسطة والمتأخرة للطفولة، ويتميز تقديم الشخصيات في هذه النماذج القصصية بشيء من التحليل الكاشف عن أبعادها، وتفاعلها مع البيئة والمتغيرات من حولها، كما يسود القصة سرد الأحداث التي تنتمي إلى السيرة والتاريخ.

ويقترن بما سبق مجموعات «قصص الأنبياء»، كتلك المجموعة التي بلغ عددها عشرين كتيباً تحت عنوان «مجموعة قصص الأنبياء»- وقد أشرف عليها الأستاذ محمد أحمد برانق أيضاً، وأصدرتها دار المعارف بالقاهرة، ومنها: آدم، ونوح، وهود، وصالح.. وغيرهم، وهذه المجموعة تناسب أطفال المرحلتين

(١) انظر ديوان شوقي للأطفال من ص٥٩: ص٧٢ إعداد وتقديم عبد التواب يوسف سنة ١٩٨٤م دار المعارف- القاهرة، وسوف تأتي إن شاء الله دراسة تتناول الجوانب الفنية لكتابات شوقي للأطفال.

المتوسطة والمتأخرة أيضاً نظراً لارتفاع مستواها؛ من حيث القضايا المعالجة وأسلوب التناول، وإن كانت تتميز بالبساطة والسهولة، وموافقتها للحصيلة اللغوية للأطفال في هذه السن[١]، وهي تكشف عن صراع هذه الشخصيات ضد الشر وإبراز كفاحها، وتأييد الله لها كنماذج خيرة.

وهناك مجموعة أخرى هي «قصص الأنبياء» لعبد الحميد جودة السحار وتتألف من ١٨ جزءاً اعتمد فيها أيضاً -فيما اعتمد- آيات القرآن الكريم، وربما كانت سابقة للقصص التي أشرنا إليها قبل ذلك، وهو يرى أهمية الاستفادة من قصص القرآن في هذا المجال، إذ يقول:

«فكرنا في هذا، فأخرجنا هذه السلسلة، ولقد راعينا فيها اعتبارين: الأول أن تكون النصوص القرآنية هي المصدر الأول لما نكتب، إذ كنا نعتقد أن للقرآن في هذه الناحية فكرة تهذيبية معينة؛ والثاني أن تحقق السرد الفني للقصص بما يربي في الطفل الشعور الديني ويقوي الحساسة الفنية وينمي الذوق الأدبي»[٢].

---

(١) انظر على سبيل المثال: مجموعة قصص الأنبياء «٤» صالح عليه السلام إشراف محمد أحمد برانق دار المعارف- القاهرة.

(٢) فاطمة الزهراء الموافي القصة عن عبد الحميد جودة السحار -شركة مكتبات عكاظ- جدة سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ص٢٧٥.

وثمة محاولة في هذا المجال هي «قصص القرآن للأطفال» وهو كتاب يتألف من ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط، لمحمد علي قطب، وهو يستهدف تقديم قصص القرآن للأطفال كما يقول: «تيسيراً لأفهامهم، واجتذاباً لنفوسهم وتربية لوجداناتهم، وتأسياً بالمواعظ المستخلصة، وتأثراً بالمنهجية القويمة، وتجنباً لكل انحراف أو نزوغ»[1]، وهذا العمل يسترشد بنصوص القرآن الكريم المبثوثة خلال صفحاته، والقرينة بكل فكرة من أفكار هذا الكتاب، كما يقدم جوانب لقصة الخلق، وما ورد في القرآن الكريم من قصص لقابيل وهابيل، وموسى، وأصحاب الكهف، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب الفيل.. إلخ، والهدف الوعظي الأخلاقي واضح جلي، لكنه خال من وسائل التجسيد الفني، مما يجعله لا يناسب الأطفال، لا سيما ومستوى صياغته أنسب للراشدين، فهناك من الأفكار ما يتجاوز مستوى الأطفال بدرجة كبيرة كفكرة وسوسة الشياطين للمخلوقات وكيفيتها مثلاً، وهذه تتكرر عدة مرات خلال الكتاب.

وفي نفس المستوى وبنفس الطريقة نجد محاولة «قصص الأنبياء للأطفال» التي قام بها عبد اللطيف عاشور، وهو كتاب يتألف من ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وفيه تقترن الفكرة بالآية القرآنية، ويعرض لجوانب من مواقف عشرين نبياً، ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وبعض الأحداث التي ترتبط

(١) محمد علي قطب «قصص القرآن للأطفال» مكتبة القرآن - القاهرة سنة ١٩٨٥م ص٥.

بحياتهم، كآدم وشيث وإدريس ونوح... إلى عيسى عليهم السلام، والهدف الوعظي الأخلاقي هو غاية الغايات في هذا الكتاب، الذي هو كسابقه أنسب للراشدين، حيث يتجاوز مستوى الأطفال لغة ومعنى، وقد خلا أيضاً من وسائل التجسيد الفني التي تلائم الأطفال، وتتصل بخبراتهم، وما فيه من صور بيانية لغوية هي لمستوى الراشدين لا الأطفال.

وإذا كانت الكتيبات الصغيرة تتميز بانفراد كل منها بشخصية نبي من الأنبياء، مما يجعلها خفيفة محتملة بالنسبة للأطفال، فربما كان من مزايا هذين الكتابين السابقين جمعهما لعدد أكبر من الأنبياء، فيتيحان الفرصة ليختار القارئ من يشاء القراءة عنه من الشخصيات المتناولة فيها، لكن كبر حجمها ووزنهما بالنسبة للأطفال قد لا يجذب الأطفال إليهما، برغم إتاحتهما فرصة الاختيار لهم.

ولا نجد في هذين الكتابين وأمثالهما من معنى القصص الفني إلاّ جانب الحكاية مجرداً من أي بناء فني متكامل، وذلك لاهتمامها بالجانب الخطابي الوعظي الأخلاقي المجرد، كما أن توظيف آيات القرآن الكريم بحاجة إلى توضيح بعض مفرداته، أو استخدامها بطريقة تيسر فهمها من خلال الأفكار التي تستضيء بها، لذلك فهذه الكتب كما قلت أنسب للراشدين، بالإضافة إلى ضخامة حجمها بالنسبة لكتيبات الأطفال الصغيرة عادة مساحة وحجماً.

أما إذا أحسن توظيف النص القرآني، واستثمر معناه في بناء قصصي، فإنه يحقق المتعة والتسلية، ويثري الفكر، كما يسهم في صقل التذوق الجمالي، ويثير الخيال، وتحاول سلسلة «قصة وآية» أن تحقق شيئاً من ذلك، ويكتبها وصفي آل وصفي بالاشتراك مع إبراهيم يونس وتصدرها دار المعارف بالقاهرة، وقد بلغت أعداد هذه السلسلة ثماني قصص هي: نزول الوحي، وحق الوالدين، وحكاية بخيل، وصحبة الأبرار، وأدب المجالس، ورزق الله، وإخوان الشياطين، والله معك، وتتميز برخص سعرها، وصغر حجمها، ووضوح خطها، وتنسيق الكتابة في صفحاتها، التي ازدانت كلها ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي تبدأ بالنص القرآني الذي يراد عرضه قصصياً، ثم تتابع الأحداث في ضوئه، نامية متطورة خلال حبكة مشوقة جذابة في بساطة، حتى تصل إلى عقدة، ثم حل يتصل اتصالاً وثيقاً بالآيات الكريمة التي كانت منطلق القصة وبداياتها؛ «فحكاية بخيل» مثلاً تعرض لموقف ثعلبة بن حاطب وعلاقته بالمنافقين، كما تقدم في لمحات موجزة ولقطات سريعة إضاءة لهجرة الرسول ﷺ وأبي بكر -رضي الله عنه- إلى المدينة، كإطار للكشف عن العلاقة بين الأوس والخزرج وموقف المنافقين، الذي يجليه مسلك عبد الله بن أُبي بن سلول الذي كان على صلة بثعلبة بن حاطب، ويتضح بُعْد نفسي في شخصية هذا الأخير هو حبه للمال، وكيف كانت تنازعه نفسه إلى تقليد أثرياء المنافقين، فيطلب من الرسول ﷺ أن يعينه على هذا الثراء المرجو بالدعاء له، لكن الرسول الكريم ينصحه «قليل تؤدي شكره، خير من كثير

لا تطيقه»[١]، إلى أن دعا له الرسول الكريم، وغمره المال، لكنه لم ينجح في أداء حق الله فيه، فقد صرفه ماله ونماؤه عن الطاعة والعبادة، حتى إذا ما دعا داعي الجهاد، لم يقدم ثعلبة شيئاً، ونكث عهده، وأخلف وعده، إلى أن أنذره القرآن في سورة التوبة، فضاقت نفسه، وتعست حياته، وصار أمثولة، ونموذجاً يحذره المسلمون.

وإذا كان الدرس التربوي الأخلاقي قد تحقق في القصة السابقة خلال بناء فني، فقد تخلله في الوقت نفسه استطرادات وعظات، واستشهاد بحديث صفات المنافق (صفحة ٤٢)، بحيث لم يحقق توظيفه دعماً لبنية القصة، بل تهديداً لنموها، فتوظيف هذه النصوص بنجاح خلال بنية القصة يتطلب مهارة وخبرة.

وإذا كان الحوار والسرد قد تآزرا في هذا البناء، فإن الرغبة في الاستشهاد بآيات أخرى من القرآن الكريم غير الآيات التي انطلقت منها القصة، لم يستثمر استثماراً فنياً ملائماً، وهذا ما يجب أن يراعى في مثل هذه النماذج.

كما كانت هناك نواح إيجابية أخرى تمثلت في إضاءة عدة أفكار خلال تتابع القصة دون تسطيح، كفكرة لماذا سمي الأنصار بهذا الاسم، ولماذ سُميت المدينة باسمها، وقد تحقق ذلك دون خلل، بل كانت هذه الإضاءة جزءاً من البنية داعماً لها (صفحة ٩، ١٠).

(١) وصفي آل وصفي وإبراهيم يونس «حكاية بخيل» ط٢ - دار المعارف القاهرة ص٢٠.

وإذا كانت مثل هذه النماذج تثري الجانب الثقافي، فهي في الوقت نفسه لا تهمل الجانب الجمالي الفني، ليس فقط باهتمامها بالبناء القصصي، ولكن من خلال عبارات قصيرة خفيفة سهلة، كما قد يتضمن بعضها صوراً بيانية ذات تأثير جمالي، وتدفق في الصياغة يؤازر الوسائل السابقة في الإمتاع والتأثير، وهي تناسب نهاية مرحلة الطفولة المتوسطة ومرحلة الطفولة المتأخرة.

كما حاول عبد التواب يوسف في سلسلة كتبه للأطفال «أركان الإسلام» أن يكتب عن الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، مجسداً هذه الشعائر، مبرزاً آثارها الأخلاقية، وهو يقربها للأطفال في أسلوب فني جذاب، يفهمهم إياها، ويحببهم فيها، ويقنعهم باعتياد ما يمكن اعتياده منها، وهي تناسب أيضاً مرحلتي الطفولة المتوسطة والمتأخرة.

وقد استهدف الكُتّاب السابقون لما تقدمت الإشارة إليه من نماذج في أدب الأطفال: تركيز انتباه هؤلاء الأطفال، وتثبيت كثير من القيم الأخلاقية في نفوسهم، كما حاول بعضهم أن يستثيروا لدى الأطفال من ضروب الخيال ما ينمي مواهبهم، ويصقل إحساسهم بالجمال، لا سيما في القصص والمنظومات، كما قد حاول هؤلاء الكُتّاب تدريب حواس الأطفال على الفعالية والنشاط الإيجابي، وأن يغرسوا فيهم كثيراً من قيم الدين الإسلامي، وتهيئتهم لأداء العبادات باقتناع ومحبة وطاعة لله سبحانه وتعالى.

٢- السيرة النبوية والحديث الشريف:

وتعد السيرة النبوية الكريمة مصدراً آخر من مصادر أدب الأطفال، لاعتماد كثير من الكُتّاب عليها، لما تتضمنه من أحداث وبطولات مادية ومعنوية تجتذب اهتمامات الأطفال، وتلبي أشواقهم للمغامرة والبطولة، كما يتجلى فيها من المبادئ والقيم ما يشبع حاجاتهم النفسية، فجهاد الرسولﷺ ضد المشركين، ومعاركه بما فيها من مفارقات بين قلة صابرة مؤمنة منتصرة، وكثرة مشركة ظالمة منهزمة، تستحوذ على انتباههم، وترضي لديهم إحساساً بانتصار المظلومين، وحسن جزاء الصابرين، وما فيها من علاقة الوحي بالرسولﷺ، وتنزله عليه، وغير ذلك من المعجزات التي تحققت له، ولم يستطع المشركون وآلهتهم أن يصلوا إلى شيء منها: كالإسراء والمعراج، وتظليل الغمامة له، مما يشبع لديهم الرغبة في التطلع نحو المجهول والمغامرة، من ثم فقد اجتذبت أخبار الرسولﷺ أطفال المسلمين في الماضي والحاضر، وما زالت، وبهرهم الرسولﷺ وصحابته رضي الله عنهم[1]، كأبطال متفردين.

والحديث الشريف مصدر ثري بالحكمة والموعظة، وكثيراً ما يعتمد في إبرازها على الصورة الموجزة، والقصة المختصرة، واللمحة الكاشفة، والمقابلات اللغوية المبينة، وفي ذلك من

(١) انظر د. علي الحديدي في «أدب الأطفال»، وما بعدها ط مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦ صفحة ٢٢٤ وما بعدها.

الوسائل الفنية ما يعين الكُتّاب على الاستفادة من هذين الجانبين: الموضوعي والفني، ولقد أمدت أحداث السيرة الكريمة وجوانب الحديث الشريف الكُتّاب بزاد خصب أثرى أدب الأطفال، فهناك من المجموعات القصصية «مجموعة أُمهات المؤمنين» التي أشرف عليها الأستاذ محمد أحمد برانق، والتي بلغ عددها ست عشرة قصة، وأصدرتها دار المعارف بالقاهرة؛ منها: خديجة الطاهرة، وخديجة الزوجة، وخديجة سيدة النساء... إلخ، وهي نماذج يمكن أن تكون ملائمة لمرحلتي الطفولة المتوسطة والطفولة المتأخرة، لطولها، ورقي أسلوبها برغم بساطته ويسره، ولما فيها من كثرة الأحداث، إذ يغلب عليها جانب القص والحكاية، وحشد المواقف التي غالباً ما يكون التتابع الزمني التاريخي أحد العوامل الرابطة بينها، لكنها في الوقت نفسه قد تحمل من عناصر التشويق ما يجذب الأطفال، كالبدء بالسؤال المثير، الحافز على البحث عن المجهول، وانتظار انكشاف جوانب الخبر أو الحكاية، وتقديم الغريب من الأحداث والمواقف، ومحاولة الإيهام بالواقع اعتماداً على تحديد الزمان والمكان وملامحهما، وذكر الشخصيات بأسمائها الحقيقية[1].

(١) انظر على سبيل المثال «مجموعة أُمهات المؤمنين» إشراف محمد أحمد برانق - خديجة الطاهرة- دار المعارف القاهرة.

لكن تقسيم كل قصة إلى أقسام قد يهدد ترابطها وتتابعها، لأن هذا التقسيم وسيلة لتجاوز ما قد يعتري تتابع الأحداث من فجوات زمنية وفنية، من ثم يغلب عليها شكل السيرة بتاريخيته، لا التتابع القصصي بفنيته، وهي خالية من الصور تماماً، ما عدا الغلاف، وتمثل مرحلة متقدمة زمنياً بالنسبة لأدب الأطفال في العصر الحديث، ويتضح في مثل هذه النماذج كثير من صفات الرسول - ﷺ - التي يبتغي الكاتب جلاءها، وتثبيتها في نفوس الأطفال، كالصبر والحكمة والتواضع والأمانة ومحبة الناس وتقديرهم له عليه الصلاة والسلام، كما يبدو الرسول الكريم نموذجاً أخلاقياً إنسانياً يقتدى به، ويحتذى سلوكه وأفعاله، ومثل هذا النموذج يعلي من الجانب التثقيفي المعرفي.

وثمة نموذج آخر لتقديم السيرة الكريمة وجوانب من حديث الرسول ﷺ، يوظف «الحوار» بجوار السرد للكشف عن جوانب من عظمة المصطفى ﷺ، ويتضح هذا النموذج في مجموعات منها «محمد خير البشر» لعبد التواب يوسف، وقد بلغت خمسة عشر نموذجاً؛ منها عظمة محمد، ومولد محمد، محمد من المولد إلى الرسالة.. وغير ذلك، وهي تناسب مرحلة الطفولة المتأخرة، لأنها تتجاوز الجانب التاريخي للسيرة إلى الإعلاء من شأن الجانب القصصي وفنيته، حيث يتم توظيف الأحداث والمواقف في بنية فنية تقنع بالصفة المتحدث عنها من صفات الرسول ﷺ، كما تذكي من الإعجاب به كقدوة وصاحب رسالة، ذي سلوك مثالي فريد،

وقد تتخذ من أحداث وشخصيات التاريخ الإسلامي ما يدعم هذه البنية الفنية، كتوظيف شخصية ابن سينا مثلاً، وما يتمتع به من علم وفقه في تأكيد جوانب عظمة المصطفىﷺ، وتتوفر في مثل هذه المجموعة القصصية لأدب الأطفال كثير من العناصر الفنية للقصة كالحبكة، والعقدة، والحل الناتج عن التسلسل القصصي لا التتابع التاريخي. وقد تتجلى بعض ملامح الشخصيات الموظفة نتيجة محاولة رسمها من الداخل والخارج، وأحياناً أخرى يتم ذلك بطريقة تقريرية، مباشرة، لكنها قد تكون وسيلة لإضاءة هذه الشخصية في مفتتح القصة[1].

وهذه المجموعات مزودة بكثير من الخطوط الجميلة والصور التوضيحية الملونة التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالفكرة المتناولة، من ثم فهي تجسيد ملائم وفعّال، يتآزر مع بنية القصة في الكشف عن غاياتها الدينية والفكرية والفنية، من ثم فمثل هذه النماذج تعلي من الجوانب التثقيفية والفنية والمعرفية، كما تنمي قدرات الطفل في التذوق والقراءة، والتحصيل، والاستيعاب، لا سيما من خلال ما يلحق بها من أسئلة في نهايتها، لكن مثل هذه الأسئلة يعوزها العناية بالجانب الجمالي الذوقي، الذي أتصور أن الكاتب

(١) انظر على سبيل المثال: عبد التواب يوسف مجموعة خير البشر: «عظمة محمد» - دار الكتاب المصري - القاهرة- دار الكتب الإسلامية - دار الكتاب اللبناني - بيروت.

يهتم به خلال قصته، وهو يختار صورها اللغوية، ومفرداتها الكاشفة عن معانيه وأحداثه في يسر ومهارة فنية، وكل ذلك بجانب جلائها للقيمة الدينية.

أما النموذج الرابع الكاشف عن المصارد الإسلامية في أدب الأطفال فيمكن أن يمثله «سلسلة المسرح الإسلامي للناشئة»: «لمحات من حياة الرسولﷺ» لمرزوق هلال، وقد أصدرتها في ثلاثين كتيباً دار الكتب الإسلامية بالاشتراك مع دار الكتاب المصري في القاهرة، ودار الكتاب اللبناني في بيروت، ومنها حوار في بيت الرسول، وفراش الرسول الكريم، ومن توجيهات الرسول.. وغير ذلك، وهذه السلسلة لا تصلح إلاّ لأطفال مرحلة الطفولة المتأخرة، لأنها برغم اتخاذها لشكل فني آخر هو المسرح، الذي يعد من أقرب أشكال أدب الأطفال إليهم، لكن مثل هذه السلسلة تتضمن آيات من القرآن الكريم، وبعض أحاديث الرسولﷺ بنصها، عندما يلقيها «الراوي» في مفتتح الموقف، ثم يتتابع الحوار كاشفاً عن مضمون هذا القول الكريم المتعلق بحادثة من حوادث السيرة الكريمة، وحياة الرسولﷺ ، أو جهاده من أجل الدعوة، وإخلاص صحابته وزوجاته رضوان الله عليهم أجمعين، وضرب الرسولﷺ الأمثلة ليسر الدين وسهولته، وحكمة تشريعاته.

وقد يبدأ هذا الراوي الموقف بعبارة أخرى تعتبر مفتاحاً لما يعقبها من حوار، من ثم فإن التسلسل الدرامي لا يتشكل إلاّ بقول

الراوي وفاعليته، في الربط بين المواقف المتناثرة من حياة الرسولﷺ الواقعية، والتي يحاول المؤلف جمعها للكشف عن ملامح المصطفى وقيم ومبادئ الإسلام، وليس هناك -مثلاً- تحليل لشخصية ما إذ التركيز على الحديث أو الأحداث التي تشكل التمثيلية، كما لا يوجد عقدة وحل بالمعنى الفني الدقيق، إذ لكل موقف في حد ذاته بداية ونهاية، لكن المواقف جميعها يربط بينها الراوي في مفتتحها، وأنها تختص بسيرة الرسولﷺ وجهاده، وإخلاص المسلمين الأوائل للدعوة، من ثم فمثل هذه الأشكال أقرب إلى الحواريات، لأنها ليست ذات شكل درامي متكامل، وإذا أمكن اعتبار ذلك وسيلة من وسائل أدب الأطفال، فلا يمكن أن يُعد تبسيط الأشكال الفنية بتجاوز مقوماتها الدقيقة ترخصاً مشروعاً في أدب الأطفال، فالفنية هي الأساس الأول لكل أدب، وبرقي مظاهرها ومقوماتها، يرقى الأدب الذي تجسده، من ثم فإن أدب الأطفال لا يقل فنية عن غيره، لكن المهم هو جعل هذه الفنية بكل مقوماتها ملائمة لمراحل نمو الطفل، ومحققة للأهداف الثقافية والمعرفية والجمالية والإنسانية والتربوية المبتغاة من ورائه.

ويلاحظ في مثل هذه النماذج سريان كثير من ألفاظ القرآن الكريم في أسلوبها، مما يقربها للناشئة، وإن كانت بحاجة إلى شرح وتفسير في بعض الأحيان[1].

(١) انظر على سبيل المثال: مرزوق هلال «حوار في بيت الرسول» سلسلة المسرح الإسلامي للناشئة، لمحة من حياة الرسول ﷺ، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت.

وقد اقترن عرض الأحداث في هذه السلسلة - بصور كثيرة حاولت تجسيدها، متخذة من الألوان وتعددها وسائل لمضاعفة التأثير الممتد على مساحة الصفحات كلها.

تبسيط مصادر السيرة النبوية:

وهناك محاولة في هذا المجال تقوم على أساس تبسيط المصادر، وجعلها في مستوى الأطفال، منها ما قام به الأستاذ إبراهيم الأبياري في معالجته للسيرة النبوية لابن هشام وذلك في طبعة ميسرة أصدرتها في عدة أجزاء سنة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ويلخص الكاتب مجهوده بقوله: «هذا الميَسَّر»:

(١) جامع من أخبار سيرة ابن هشام ما لا غنى للناشئين الصغار عنه.

(٢) وهو بأسلوب ابن إسحاق وابن هشام، إلاّ في القليل الذي لا يعد، من وضع كلمة سهلة مكان كلمة صعبة.

(٣) وكذا هو في ترتيبه على نحو ما ساقه ابن إسحاق وابن هشام»[١].

وهذا العمل جهد طيب في محاولة تقديم سيرة ابن هشام للناشئة، لكن يطغى عليه جانب السرد التاريخي، مما يجعله لا يُتَقبَّل إلاّ ممن هم في مرحلة الطفولة المتأخرة من الأبناء والبنات،

(١) إبراهيم الأبياري السيرة النبوية لابن هشام - دار الكتاب المصري بالقاهرة - ودار الكتاب اللبناني بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ج١ ص٢.

وربما بعد ذلك، لكثرة الأحداث وازدحامها بالأسماء والمواقف، وبرغم أنها مزودة بالصور الملونة، لكنها قد لا تتناسب مع ارتفاع الأحداث وتعقدها، حيث لا تبين عنها كثيراً.

وإذا بحثنا عن الجانب الأدبي الجمالي، في مثل هذه المحاولات التبسيطية لكتب السيرة، لوجدناه ضئيلاً لسيطرة الأسماء وكثرتها، وحشد المواقف، وشيوع الجوانب التاريخية المختلفة، مما يجعلها أقرب إلى مستوى مرحلة المراهقة منها إلى مرحلة الأطفال، كما أنها أقرب إلى التاريخ منها إلى الأدب.

ومن اللافت للنظر أن هناك مجموعات من السلاسل الدينية للأطفال، لتعليمهم أمور الدين من عقيدة ومعاملات وشرائع وأخلاق، وهي تمتاح من المصادر الإسلامية، وتوظف قصر الجمل والتقليل من الأفعال المزيدة، كما تستخدم الإيقاع والتنغيم في أناشيدها ومنظوماتها، متخذة مما سبق وسائل ليستوعبها الأطفال، ويحفظوا بسهولة هذه المنظومات المتضمنة لكثير من أمور الدين التي يرجى غرسها في نفوسهم وتعويدهم إياها.

وبرغم وضوح الأهداف التعليمية، وتحقق الغايات التربوية في كثير من هذه السلاسل لكن الجوانب الجمالية الفنية كالتصوير باللغة تبدو فيها على استيحاء، مما يجعلنا لا نعدها من أدب الأطفال، برغم ما فيها من أثر للجانب الإيقاعي في صقل المواهب، وإبراز القدرات، وتنمية الاستعدادات، ومثل هذه

السلاسل قد يثري الجانب التثقيفي الديني المعرفي لدى الأطفال، ولا ينقصها وسائل التجسيد كالألوان والرسوم، كما أنها قد تحدد العمر الزمني الذي تناسبه هذه السلاسل، ويتضح هذا الاتجاه في سلسلة «كتاب المسلم الصغير»، وسلسلة «واجبي» وهما من إصدار شركة سفير بالقاهرة[١].

(١) انظر على سبيل المثال: كتاب «المسلم الصغير»، شركة سفير - وحدة ثقافة الطفل، القاهرة، وكذلك عن نفس الشركة تصدر سلسلة «واجبي».

ثانياً: المصادر التراثية:

وأعني بها ما وصلنا باللغة العربية عن السلف غير القرآن الكريم والحديث الشريف، والسيرة النبوية، وهذه المصادر منها ما هو عربي أصلاً كبعض «نوادر جحا» «ونهاية الأرب» للنويري، «والوزراء والكُتّاب» للجهشياري، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، و«البخلاء» للجاحظ، و «مقامات» بديع الزمان الهمذاني، و«مقامات» الحريري، و«رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و«حي بن يقظان» لابن طفيل الأندلسي، وما وصل إلينا من الشعر العربي قبل العصر الحديث، وهذه المصادر لم تكتب أساساً للأطفال، وإنما حاول الكُتّاب استثمارها أو تبسيطها. ومنها ما هو غير عربي دخل إلى أدبنا قديماً مثل «كليلة ودمنة»، و«ألف ليلة وليلة»، وكلا القسمين أفاد منهما الكُتّاب في أدب الأطفال.

وبرغم أن المصادر التراثية ذات صلة وثيقة بالمصادر الإسلامية التي أشرنا إليها، فقد نشأت في ظلها، وتأثرت بها سلباً أو إيجاباً، لكننا أفردنا المصادر الإسلامية الخالصة بالحديث، لأنها تمثل أهم الأُصول الإسلامية، وتجسد أهم مقومات الدعوة الإسلامية ونضالها، ولما لها من دور أخلاقي وتربوي وفني جلي في كتابة أدب الأطفال، وما يتصل بها من تأثير واضح في الثقافة بصفة عامة، كما أن الملمح الإسلامي شامل يستوعب التراث من حيث موافقته له، أو مخالفته إياه، هذا برغم أن التراث نفسه قد يضم بعض المصادر الإسلامية؛ ككتب

السيرة مثلاً، لكن التحديد الذي بدأنا به هذا المصدر أساسي في تشكيل هذه المصادر وتصنيفها لبيان فاعليتها وأثرها في أدب الأطفال.

وتتعدد نماذج أدب الأطفال التي تعتمد على المصارد التراثية اقتباساً، أو تلخيصاً، أو تبسيطاً، كما تحاول أن توظف هذه المادة التراثية في أشكال فنية تناسب مستويات مرحلة الطفولة.

بالنسبة للمصادر التراثية العربية فسوف نجد مثلاً أن «نوادر جحا» تشغل حيزاً ملحوظاً في التراث، برغم تأخر ظهور شخصية صاحبها، الذي يرجعه بعض الباحثين إلى القرن السابع الهجري[١]، والاهتمام بهذه الشخصية مرده إلى أهمية الفكاهة في حياة الناس بصفة عامة، ولأنها تمثل لوناً من ألوان النقد الاجتماعي الذي قد يلمس ما في الحياة من نقص وقصور.

ويبدو أن شخصية جحا متعددة الانتماءات، فهناك جحا التركي المسمى بـ «نصر الدين الرومي»، وهناك جحا المصري[٢]، وجحا الليبي.. وهكذا، واتساع الانتماءات وتعددها مقترن بكثرة صفات هذه الشخصية لدرجة التناقض، فقد يكون ذكياً أو غبياً، حكيماً أو أحمق، كريماً أو بخيلاً، وهكذا حسب الغاية التي توظف من أجلها هذه الشخصية، لتحقيق الفكاهة، والنقد الاجتماعي

(١) انظر حكمت الشريف «نوادر جحا الكبرى» ط١٤ المكتبة التجارية القاهرة صفحة ٤، ٥.
(٢) انظر يوسف سعد «نوادر جحا» المركز العربي الحديث ط١ سنة ١٩٨٩م القاهرة، ٤.

أو السياسي، فجحا يتمتع «بحس فكاهي يؤمن بفلسفة الضحك، ودوره في التغلب على صعاب الحياة»[١]، والسخرية منها، كما أنه بهذه الصفات المتعددة يمكن أن يمثل كثيراً من الشخصيات في الحياة، مما يعين الكُتّاب على توظيفها لتحقيق كثير من الغايات الإنسانية والاجتماعية في أدب الأطفال وغيره.

ومن أوائل مَنْ كتب في نوادر جحا للأطفال محمد الهراوي وكامل الكيلاني.

وهناك مَنْ حاول تقديم بعض هذه النوادر؛ فقد صدر عن المركز العربي الحديث بالقاهرة مجموعتان: الأولى هي «نوادر جحا البخيل» سنة ١٩٨٦م لعبدالعزيز بيومي، أما الثانية فهي «نوادر جحا» إعداد يوسف سعد سنة ١٩٨٩م، والمجموعة الأولى تتكون من ثماني نوادر، في غلاف أنيق متعدد الألوان، ومزود ببعض الصور الطريفة، ذات الدلالة الفكرية[٢]، لكن داخله يتضمن بعض الصور ذات اللون الواحد، مما قد يطامن من جاذبيتها، وتأثيرها، بالنسبة للفكرة القرينة بها، ونوادر هذه المجموعة طويلة، بحيث إن أية نادرة منها تتجاوز الصفحة الواحدة، وقد تصل إلى ثلاث صفحات بالصورة المقترنة بها، وهذا الطول يجعلها لا تناسب مرحلة الطفولة المبكرة ولا المتوسطة، لا سيما

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) انظر عبد العزيز بيومي «نوادر جحا البخيل» المركز العربي الحديث القاهرة سنة ١٩٨٦م.

وهي تقوم على الدهاء والمخادعة والمراوغة لتكشف عن بخل جحا، وإذا ما نجحت هذه الحيل في إبراز بخل جحا، فقد لا تنجح في تحقيق عنصر الفكاهة والتسلية للأطفال الذي من أجله كتبت هذه النوادر، من ثم فهي أنسب للراشدين، كما أنه يخشى من تأثيرها السلبي على الأطفال، خاصة وهناك تعليق في صفحة ١٢ بعد حيلة من حيل جحا، التي يتخلص فيها من ضيوفه بالدهاء والمراوغة، فلا يقدم لهم طعاماً أو شراباً، هذا التعليق يقول فيه الكاتب «ألا ترى معي أنها حيلة ظريفة»، مع أن الرسول ﷺ قد ربط بين الإيمان وإكرام الضيف في قوله: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

أما المجموعة الثانية فهي تتألف من ثمانين صفحة، داخل غلاف أنيق أيضاً، مزود بصورة طريفة لجحا، ويتضمن كثيراً من النوادر، بعضها يتضح فيها تأثرها بالقديم، وبعضها الآخر يتجلى فيها ملامح عصرية: كالتأمين والسيارة والقطار ومعاون المدرسة... إلخ، كما يتضح تأثر هذه النوادر ببعض النكات الشعبية. والفكاهة تقوم في جانب كبير من هذه النوادر على المفارقة، والذكاء، وسرعة البديهة في إدراك المتناقضات، وكثير منها قصير لا يتجاوز السطرين أو الثلاثة، مما يعين على فهمها، وإدراك مغزاها بالنسبة للأطفال في مرحلتي الطفولة المتوسطة والمتأخرة، لكن بعض نوادرها قد تتجاوز مستوى الأطفال، ولا يصلح إلاّ للراشدين[1].

(١) انظر يوسف سعد «نوادر جحا» المركز العربي الحديث القاهرة سنة ١٩٨٩م صفحات ١١، ١٣، ١٧، ٢٤.

والرسوم المزودة بها هذه النوادر قليلة، كما أن هذه النوادر موضوعة في الكتاب دون تصنيف أو ترتيب فني، يقوم على أساس عنصر الزمان أو المكان أو طبيعة المفارقة مثلاً، حتى تسهل الاستفادة منها ودراستها، كما أن هذا الكتاب كسابقه يخلو من تحديد العمر الذي تناسبه هذه النوادر، والجوانب الأدبية والفنية مفتقدة فيهما كليهما.

وبالنسبة للأصول التراثية غير العربية؛ فقد حاول وصفي آل وصفي تقديم «حكايات من كليلة ودمنة» في سلسلة أصدرتها دار المعارف بالقاهرة منها: عين القمر، وخدعة دمنة، وحيلة الغراب التي سوف أشير إليها، كما أن كل قصة عبارة عن حكاية يختارها الكاتب، بعد تخليصها من ارتباطاتها بغيرها في قسمها من الكتاب الأصلي[1] ثم يصوغها مجردة من الأمثال الكثيرة المتصلة بها، محققاً لها وحدة الحدث، ويقدمها مستقلة في كتيب خاص بها، وهو بذلك يفض ما بين قصص كل باب في النسخة الأصلية من تشابك واتصال غير فني، حتى يتمكن الأطفال من استيعاب القصة المختارة وتبدو في شكل فني ملائم، وإذا كان الكاتب قد حافظ على البداية التساؤلية الاستدعائية التي تتم بين دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف، عندما يطلب الأول من الثاني أن يضرب له مثلاً يوضح مسلكاً ما أو مبدأ أخلاقياً، فإن وصفي آل وصفي

(١) انظر عبد الله بن المقفع «كليلة ودمنة» منشورات دار مكتبة الحياة -بيروت ط سنة ١٩٨٢ من صفحة ٢٦٤ إلى صفحة ٢٩٤ .

قد تدخل في هذه البداية بتجريدها من التفلسف والكلمات الصعبة، كما زاوج بين السرد والحوار، للكشف عن أبعاد الحدث، وجلاء بعض صفات الشخصيات، واعتمد كثيراً على الجُمَل القصيرة التي يسهل متابعتها، ولقد تميز أسلوبها بشيء من الرقي الفني المتمثل في سيولة عباراتها، وفصاحة كلماتها، وبعض الصور الفنية التي تحقق الجمال الفني، لكنها في مستوى الأطفال مثل (كاد أن يسلمه لليأس -إن الكثرة تغلب الشجاعة - تبكرون مع النور).

ولقد حافظ على الهيكل العام للقصة المفردة بعد أن خلصها من ارتباطها بغيرها، كما حافظ على كثير من ألفاظها السهلة، متجنباً ما قد يصعب فهمه، لكنه كما أشرت حقق للقصة عنصر الوحدة، من ثم فهي تناسب مرحلة الطفولة المتأخرة، لا سيما والحدث فيها غالباً ما يكون مركباً، وتنتهي بتقرير حكمة أو موعظة يسردها الكاتب بطريقة مباشرة، كما يتضح مثلاً في «حيلة الغراب»[1]، وبرغم أهمية الصور الملونة والرسوم في

(١) انظر على سبيل المثال: وصفي آل وصفي حكايات من كليلة ودمنة «حيلة الغراب» ط دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨١م، وتدور أحداث هذه القصة حول اعتداء البوم على الغربان، برغم تجاورهما، ثم محاولة ملك الغربان مواجهة ذلك باستدعاء وزرائه الخمسة الذين نصحه أربعة منهم بالهجرة والرحيل، أو الصلح وتقديم فروض الولاء والطاعة، لكن الغراب الخامس دبر حيلة قبلها الملك، تمثلت في الرحيل المؤقت للغربان وترك هذا الخامس في مكانهم وقد نبذ وضرب، مما جعل البوم تعطف عليه، وتثق به، حتى اكتشف تفاصيل حياتها ومعيشتها، ثم اتصل سراً بملك الغربان محدداً له وقت الهجوم وكيفيته، عندما تتجمع البوم في مغارة نهاراً، ثم تحشد الغربان من الحطب ما تشاء عند مدخل المغارة، ثم يشعلونه فيهلك مَنْ يخرج، ويختنق مَنْ يبقى.

قصص الأطفال، لكنها في هذه المجموعة لم تكن محققة للأهداف المنوطة بها بدرجة كافية، إذ يعوزها التناسق والتناغم والتآزر مع الأفكار المرتبطة بها.

والكاتب خلال عرضه للقصة، قد يضيء معنى مفردة ما: «كالجلاء» مثلاً، عندما يقترح أحد الغربان «الجلاء» عن المكان، برغم أنه عشهم الذي لا مأوى لهم سواه، فيعلق الكاتب على ذلك بأن هذا الغراب نسي أن الجلاء لا يكون إلاّ من المعتدين على ديار غيرهم[1] وهكذا، كما تتضمن القصة بعض الحكم والمواعظ خلال تتابعها، بجانب ما يقرره الكاتب في نهايتها بطريقة مباشرة، والكاتب يحسن استخدام علامات الترقيم، لا سيما في توظيف النقاط المتتابعة التي تسمح لتيار الوعي بالتدفق.

وتأثير «كليلة ودمنة» في جنس القصص على ألسنة الحيوان يتجاوز أدب الأطفال العربي إلى أدب الأطفال في كثير من بلدان العالم؛ وهي أصلاً ترجمة لمجموعة القصص الهندية المسماة «بنجاتنترا»، التي وضع على أساسها كثير من الخرافات في الأدب العربي والأوروبي، وهي تعني الكتب الخمسة، التي وضعها أحد البراهمة ليعلم أمور الدنيا بوساطة القصص لثلاثة أمراء يتسمون بالحمق والجهل، ومعظم هذه القصص عن الحيوانات،

(١) انظر قصة «حيلة الغراب»، وقد يكون هذا المعنى مخالفاً لمعنى اللفظة المعجمي انظر المعجم الوسيط جزء ١ مادة جلا صفحة ١٣٢.

وتشبه «البنجاتنترا» خرافات «إيسوب» اليوناني من حيث إنها تتضمن حكمة الدنيا، وقد ترجمت قصصها إلى لغات كثيرة، كما أثرت في خرافات لافونتين، وقصص جريم،... وقد عُرف الكتاب بصفة عامة في انجلترا باسم خرافات بلباي أو خرافات بيدبا، وفي الأيام الأخيرة عرفت بالبنجاتنترا سنة ١٩٧٩م بوساطة ليونارد كليرك[١].

وتعد «ألف ليلة وليلة» أيضاً من أهم المصادر التراثية التي أثرت في أدب الأطفال في كثير من بلدان العالم، فشخصيات السندباد وعلاء الدين وعلي بابا ذائعة مشهورة في كثير من الآداب، لمستوى الأطفال، وقد وظفت لإمتاعهم وتسليتهم، وتنمية فكرهم، واستثارة خيالهم، وتزويدهم بكثير من المبادئ والقيم التي تعينهم على مواجهة حياتهم بمتغيراتها، كحسن التصرف، لكن ما بها من سلبية مثارها الاعتماد على المستحيل في حل المشكلات، كمصباح علاء الدين مثلاً، قد يرسب في نفوس الأطفال التعلق بالمستحيل، والاعتماد على الوهم.

وفي أدبنا العربي الحديث كان كامل كيلاني (١٨٩٧م- ١٩٥٩م) من أوائل الكُتّاب الذين حاولوا الاستفادة من قصص «ألف ليلة وليلة»، فكتب عشر قصص منها: بابا عبدالله والدرويش، وأبو صير

(١) Humphery Carpenter and Mari Prichard The Oxford Companion to childrens Literature Oxford New York- Oxford University Press 1984 P. 393-394.

وأبو قير، وعلي بابا، وعبدالله البري، وعبدالله البحري... وغيرها، وقد اختص كل قصة بكتيب خاص، وهو بإفراده للقصة على هذا النحو يخلصها من ارتباطها بغيرها من القصص كما كانت ترويها شهرزاد، بالإضافة إلى تبسيطها من حيث تجريدها من الألفاظ الصعبة، بل إنه عندما يورد كلمة قد تكون غير مفهومة يضع معناها بين قوسين، وإن كان ذلك في القليل النادر[١].

وما فيها من عناصر قصصية كالبيئة والعقدة والحل مأخوذة غالباً من القصة الأصلية، وقد صاغها الكاتب في أسلوب بسيط، ونظراً لطول مثل هذه القصص، وتعدد أجزاء الحدث فيها وتركيبه، فهي تلائم نهاية مرحلة الطفولة المتوسطة، ومرحلة الطفولة المتأخرة، لا سيما وكل قصة مقسمة إلى أقسام متتابعة، مما قد يعين على استيعابها[٢]، بل إنه يجعل لكل قسم عنواناً، رعاية للتيسير على الأطفال، حتى تسهل متابعتها فكرياً، كما أن بها صوراً ملونة قليلة، قد تضيء الفكرة المرتبطة بها.

وتتميز صياغات كامل كيلاني لهذه المجموعة باليسر والسهولة والوضوح، برغم قلة الصور بها، وظهور شيء من الاهتمام بالجوانب الأدبية.

(١) انظر على سبيل المثال كامل كيلاني «أبو صير وأبو قير» ط١٧ دار المعارف صفحة ٦، وكذلك «علي بابا» ط٢١ دار المعارف صفحة ٤.

(٢) انظر كامل كيلاني «عبدالله البري وعبدالله البحري» ط١٥ دار المعارف القاهرة.

ثالثاً: الترجمة:

تعتبر الترجمة من أهم مصادر أدب الأطفال أيضاً، يدل على ذلك ما ترجم للكبار، ثم قدم للأطفال اقتباساً أو تبسيطاً أو تلخيصاً، أو النماذج التي ترجمت للأطفال مباشرة لأنها ألفت أصلاً لمستوياتهم في لغات غير العربية.

وبالنسبة لأدبنا العربي في العصر الحديث، يمكن أن يعد إدخال رفاعة الطهطاوي (١٨٠١م- ١٨٧٣م) قراءة قصص الأطفال في المرحلة الابتدائية، في منهج مدارس المبتديان وغيرها بمصر، أول محاولة للعناية بأدب الأطفال ودوره في تنشئتهم، كما كانت ترجمة رفاعة الطهطاوي نفسه لمغامرات تليماك تأكيداً لذلك الاتجاه، لا سيما وقد كتبها فينلون سنة ١٦٩٩م من أجل دوق بورغونيا[١]، وتوجيهه.

وقد اتصل رفاعة الطهطاوي بأدب الأطفال في فرنسا، حيث كان مزدهراً، فقد بدأ اهتمام الفرنسيين بذلك قبل بعثة الطهطاوي بمائة عام تقريباً[٢]، وكم كان الطهطاوي حريصاً على ترجمة مثل هذه الكتب لأطفال مصر، كاهتمامه بترجمة ما يهم الكبار أيضاً من معارف وعلوم لكن محاولة رفاعة الطهطاوي خبت بموته.

---

(١) انظر دونيز إسكاربيك «أدب الطفولة والشباب» مرجع سابق صفحة ١٦

(٢) يعد تشارلز بيرو Charless Perrult من أوائل مَنْ كتبوا أدب الأطفال بفرنسا وقد كان ذلك سنة ١٦٩٦م.

ثم ترجم الأب بوناونتورا جيرور اليسوعي سنة ١٨٨٣م بعض القصص والأمثال للطلبة المتقدمين من الفرنسيين في المدارس العربية.

وقد حاول محمد عثمان جلال (١٨٢٨-١٨٩٨م) الترجمة عن لافونتين في «العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ»، لكنه كان يقصد الكبار لا الصغار. وقريب منه محاولة إبراهيم العرب ١٩١٣م فيما كتبه من خرافات في «آداب العرب» متبعاً نهج لافونتين، لكنه كان يكتب ويترجم للأطفال.

وقد اشتمل ديوان «تطريب العندليب» سنة ١٩٤٠م لجبران النحاس على بعض حكايات لافونتين، كما أشاد به في مقدمة هذا الديوان، وببراعته في نظم الأساطير، وقد ظهرت بعض منظومات النحاس منذ سنة ١٩٠١م[٦٤].

وفي نفس الاتجاه سار الأب اللبناني نقولا أبو هنا المخلصي سنة ١٩٣٤م عندما ترجم مائة وثماني عشرة خرافة للافونتين، ولم يقدر لمثل هذا الاتجاه أن يتدعم إلا بفضل الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨م-١٩٣٢م)، الذي كان قد سافر إلى أوروبا وهناك اتصل بالجديد في الآداب والفنون، ومن بينها أدب الأطفال، الذي شغف به فيما شغف، وحاول أن يمد أدبنا العربي الحديث بزاد

(١) انظر د. هادي نعمان الهيتي «ثقافة الأطفال» عالم المعرفة الكويت سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب العدد ١٢٣ رجب سنة ١٤٠٨هـ مارس سنة ١٩٨٨ صفحة ٢٢٨.

للأطفال، يسهم في تربيتهم، بتقديم القيم الإسلامية والأخلاق والمعارف بطريقة جذابة مشوقة، فكان جانب من القصص التي كتبها على ألسنة الحيوان والطيور - وقد جمعت في نهاية الجزء الرابع من الشوقيات، لكن جزءاً منها لم يكتبه شوقي للأطفال، وإنما كتبه للكبار، وما في مثل هذه القصص من رموز وألغاز يؤكد ذلك، وقد قام الأستاذ عبد التواب يوسف بإصدار ديوان شوقي للأطفال متضمناً ما كان في الجزء الرابع من الشوقيات، وما ظهر في الشوقيات المجهولة التي جمعها د. محمد صبري، كما صدره بدراسات عن جوانب من فن شوقي، وملابساته في هذا المجال[٦٥].

ومحاولة شوقي تدل على وعي وبصر بأهمية أدب الأطفال في إضاءة حياتهم، وتبصيرهم بمجتمعهم، وتقديم خبرات تعينهم على السلوك في حياة يسودها الإقطاع والاستعمار، متخذاً من الكلمة الجذابة، والقصة الممتعة، والنغمة المؤثرة، وسيلة لتنمية إحساسهم بالجمال، وتوسيع مداركهم، وملء نفوسهم سعادة وبهجة، وقد كان لاتصاله بالآداب الأجنبية دور مهم في ذلك.

ولقد كان شوقي حريصاً على أن تلائم قصصه مستوى الأطفال، من ثم فقد خلت معظمها من التعقيد والتفلسف، وجعلها في متناولهم، وكان يقرأ على الأطفال ما يكتب من حكايات وأساطير فيسرون، وقد تمنى أن يوفق في إثراء هذا

(٦٥) انظر ديوان شوقي للأطفال إعداد وتقديم عبدالتواب يوسف دار المعارف مصر سنة ١٩٨٤م من صفحة ٣ إلى صفحة ٢٢.

اللون، كما عرض على الشاعر خليل مطران أن يتعاون معه في ذلك، لكن الأخير لم يحقق له هذه الأمنية[١].

وقد تأثر شوقي فيما كتب من قصص على ألسنة الحيوان بلافونتين[٢] الأديب الفرنسي، الذي تأثر بدوره بقصص إيسوب اليوناني، وقصص الرومان، و«كليلة ودمنة» التي كان قد ترجمها عبد الله بن المقفع من الفارسية إلى العربية، وعندما فقدت النسخة الفارسية قام حسين واعظ كاشفي بالترجمة من العربية إلى الفارسية، ثم ترجم جليبير جولمان مستشار الدولة الفرنسي هذه النسخة الفارسية إلى الفرنسية سنة ١٦٤٤م، وهي النسخة التي اتصل بها لافونتين[٣].

وقد أشار شوقي إلى تأثره بلافونتين، وربما كانت هذه الإشارة لأن لافونتين قد نهض بهذا الفن القصصي على ألسنة الحيوان نهضة واضحة، حيث «ضبط العلاقة بين الرمز والمرموز إليه، بدقة التشابه والاتزان بين الشخصية الخيالية والشخصية الحقيقية، وحقق المتعة الفنية للحكاية بتصوير الأفكار العامة من وراء الحقائق الحسية، وحرص على التناسق بين الشخصية وسلوكها بإبراز صفاتها المثيرة، وقد راعى الواقع في رسم الصورة الخلقية ليضاعف من حيوية الشخصية وقوة إثارتها.

---

(١) انظر د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» صفحة ٢٤٥، وانظر مقدمة الشوقيات سنة ١٨٩٨م.

(٢) انظر مقدمة الشوقيات ط سنة ١٨٩٨م.

(٣) انظر د. محمد غنيمي هلال «الأدب المقارن» ط سنة ١٩٧٧م صفحة ١٨٨.

كما قام بإحكام الإطار العام لتتضح الحبكة متسلسلة، بحيث يسير الحدث في تطور نام»[١] .

وبرغم أن «رحلات جلفر» لجوناثان سويفت بأقسامها الأربعة قد اجتذبت الكبار والصغار، خاصة الرحلة إلى ليليبوت والرحلة إلى بلاد العمالقة، فقد صدرت ترجمات عدة لها في اللغة العربية - منذ ترجمة عبد الفتاح صبري سنة ١٩٠٩م للرحلة الأولى إلى ليليبوت، والرحلة الثانية إلى بروبد نجناج- بقصد تقديمها للصغار لا الكبار، وقد تعددت هذه الترجمات بعد سنة ١٩٤٠م؛ منها ترجمة كامل كيلاني، ويبدو أنها «ترجمة تجارية بقصد الربح، إذ كانت رحلات جلفر مقرراً في المدارس المصرية»[٢]، وقد كان الحرص في هذه الترجمة على المعنى أهم من الحرص على الجوانب الأدبية.

ثم ظهرت ترجمة شبه كاملة لكامل كيلاني في أربعة مجلدات ضمن سلسلة أشهر القصص، يستقل كل جزء منها برحلة أو قسم من أقسامها الأربعة، وقد تكررت طبعاتها، حتى بلغت الرحلة الثانية الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٧م، بينما قد نفدت الرحلة الأولى من الأسواق سنة ١٩٩٠م، وهذه الترجمة مزودة بالصور والرسوم غير الملونة، ومضبوطة بالشكل، وقد قسم كل رحلة إلى أقسام

(١) السابق نفسه ص١٨٩.

(٢) د. محمد رجا الدريني «الحولية التاسعة لكلية الآداب بجامعة الكويت» الرسالة السادسة والخمسون (١٤٠٨-١٤٠٩هـ) (١٩٨٧-١٩٨٨م) صفحة ١٥ .

فرعية ذات بداية ووسط ونهاية، بحيث يمثل كل منها موقفاً أو حدثاً من أحداث كل رحلة وقد جعله تحت عنوان خاص به، وهو لون من ألوان التبسيط والتيسير يعين على استيعابها، وقد تأثر بهذه الطريقة في تقسيم الحدث ووضع عناوين فرعية لها كثيرون ممن كتبوا قصصاً للأطفال، وأسلوب صياغة هذه الترجمة متميز من حيث عنايتها بالجوانب الأدبية الجمالية، والصياغة المشرقة، وهي مضبوطة بالشكل وفي الوقت نفسه في مستوى مرحلة الطفولة المتأخرة.

وقد ظهرت في لبنان سنة ١٩٥٨م، ضمن سلسلة «قصص ومغامرات السلسلة الحمراء» العدد الرابع قصة مقتبسة للقسمين الأول والثاني.

كما قدم وصفي آل وصفي سنة ١٩٧٣م «جلفر والعمالقة» نشر مكتبة غريب بالقاهرة، وهي ترجمة مختصرة مبسطة في ثلاثين صفحة، وفي سنة ١٩٨٠م ضمن سلسلة حكايات وأساطير، العدد الثالث ظهرت ترجمة ملخصة ومصورة للرحلتين الأولى والثانية لماري ستيوارت، وقد ترجمها إلى العربية وجدي رزق غالي، وهذه الطبعة مزودة بكثير من الرسوم والصور التوضيحية وضبط الكلمات بالشكل، وصياغتها متميزة.

ولعل آخر ترجمة قد صدرت في الكويت سنة ١٩٨٣م لمحمد حسن التيني ضمن سلسلة «قصص عالمية للأطفال»، تحت عنوان

«رحلة في بلاد الأقزام»، وهي اقتباس وتلخيص شديد لعدة أحداث من القسم الأول، ومزودة برسوم غير ملونة ومضبوطة بالشكل.

ومعظم هذه الترجمات السابقة تلائم مرحلة الطفولة المتأخرة لكثرة التفصيلات بها، ووجود بعض الكلمات الصعبة النطق كأسماء البلاد مثلاً.

وقد تأثر برحلات جلفر كثيرون ممن كتبوا في قصص الرحلات للأطفال سواء في النواحي الخيالية أو الجوانب الإنسانية، كما تأثر بها كتاب أدب الخيال العلمي للأطفال، مثل «رحلة إلى القمر» لأحمد نجيب، التي يبدو فيها شيء من هذا الخيال، كما سوف يتضح.

ويصف جلفر سويفت في القسم الأول من رحلات جلفر رحلة خيالية فلسفية في بلاد الأقزام، كما يتحدث عن رحلة أخرى في بلاد العمالقة في القسم الثاني، والأقزام ليسوا أقزاماً إلاّ بالنسبة لجلفر أو الإنسان العادي، وكذلك العمالقة، وبرغم نجاح الكاتب في تقديم عالم وبلاد مناسبة لهؤلاء الأقزام، وبلاد أخرى مناسبة لأولئك العمالقة، لكنهم بشر في سلوكهم، وأخلاقهم، وإن اتخذهم الكاتب وسيلة لنقد مجتمعه، والسخرية من طبائع الإنسان وانحرافاته بطرق فنية متنوعة.

وبرغم كثـــرة التفاصـــيل، لكنها تقـــنع القراء أنهم أمام تقارير أو أحداث موضوعية ليس من السهل الشك في واقعيتها، مع غرابتها الشديدة.

ولقد كانت وسيلة التعبير نثراً «جمع في سويفت، كما لم يفعل أحد قبله (كثيراً من) مقومات الكتابة النثرية المفيدة، كما تعارف عليها ودعا إليها الكُتّاب الإنجليز، منذ بداية القرن السابع عشر حتى الآن، هذه المقومات هي البساطة والإيجاز والدقة والوضوح والواقعية والابتعاد عن التزويق غير المفيد، والتنسيق غير المجدي، وهي مقومات كانت تتطلبها الكتابة العلمية، والروح العلمية الحديثة، التي برزت على يد فرانسيس بيكون Francis Bacon، ومارسها بنجاح كبير أو صغير العلماء والفلاسفة والمفكرون والأدباء، كما اشتهر بممارستها بنجاح كتاب مثل جون ملتون John Millton، وتوماس هوبز Thomas Hobbes، ودانيال ديفو Daniel Defoe، وجوزيف إديسون Joseph Addison، وريتشارد ستيل Ritchard Steel وغيرهم لكن الفضل في الاكتمال الفني للنثر الإنجليزي يعود إلى كاتبنا جوناثان سويفت مما جعل نثره قدوة يحذو حذوها الكتاب الإنجليز فيما بعد، ولا سيما كتاب الروايات»[١]

(١) السابق نفسه ص٧٢.

وبهذه الملامح والسمات أثر سويفت في كثيرين ممن كتبوا رحلات خيالية فلسفية في أدب الأطفال مثل «علاء وحده في العالم»[١] لمصطفى رمزي، و«رحلة إلى القمر»[٢] لأحمد نجيب.

وإذا كان سويفت يصل إلى وصف الواقع ومعالجته في رحلاته عن طريق «الإيهام»، فإن أحمد نجيب مثلاً في «رحلة إلى القمر» يحقق نفس الغاية، ولكن عن طريق الحلم والسحر، ويشترك -بعد ذلك- مع سويفت على اختلاف في الدرجة بينهما، في الاعتماد على عناصر التشويق والإغراء، وكسب ثقة القراء، بصدق قصصهم وموضوعيتها، برغم ما فيها من غرابة شديدة، فنجد في قصة «رحلة إلى القمر» بنية فنية قصصية، قوامها كثرة التفاصيل والعصفور الأزرق يلتقي - في الحلم - بأصدقائه، ويذهبون إلى النهر خفية لمشاهدة زورق مسحور، حيث الجنيات، وبنات القمر يمرحن، ثم تختفي هؤلاء الأخيرات خجلاً عندما يدركن أن هناك مَنْ يراقبهن، ثم يتصالح القمر بضوئه مع هؤلاء الأطفال، بعد أن توسط العصفور الأزرق لهم، ويقيم الكاتب تقابلاً بين الخير والشر عندما ينقسم هؤلاء الأطفال إلى فريقين أمام هذه الدعوة؛ الأشرار يريدون أن يستخدموا ابتعادهم عن الأرض ووجودهم على سطح القمر للإساءة إلى أهل الأرض، بينما

(١) مصطفى رمزي صندوق الدنيا «علاء وحده في العالم» ط١ دار المعارف القاهرة ١٩٨٥م.
(٢) أحمد نجيب حكايات العصفور الأزرق «رحلة إلى القمر» دار الشروق بيروت - القاهرة.

الأخيار يستمرون في خيريتهم، وطبيعي أن يعاقب أولئك، ويثاب هؤلاء، فيرفض القمر الأشرار ويسقطون في الفضاء إلى الأرض، بينما الأخير يرحب بهم القمر ويستمتعون برحلة جميلة مفيدة. وإذا كانت مكافأة المحسن واجبة، ومعاقبة المسيء لازمة، فذلك السلوك مما يشبع إحساساً لدى الأطفال بوجوب تحقق العدل، لكن هذا العقاب حبذا لو تم بطريقة لا تؤلم مشاعر الأطفال.

ثم يستمر الكاتب في تحقيق نماء حدثه، اعتماداً على بعض الحقائق العلمية المتصلة بطبيعة القمر، وما عرف عنه من خلوه من الهواء والحياة، حتى تنتهي رحلة الأطفال ويدرك العصفور أنه يحلم، وسوف أعيد عرض بقية هذه القصة تفصيلاً في المصدر الرابع وهو المتغيرات لأن هذا الجزء أكثر اتصالاً به.

والجوانب الأدبية الجمالية متعددة في هذه القصة، بعضها يتعلق بالصياغة وما فيها من صور بسيطة جميلة مثل: «مياه النهر ساكنة هادئة كأنها نعسانة في ضوء القمر الجميل -وجه القمر المنير المستدير يطل عليها»، وبعضها يتصل بحبكة القصة ونمو حدثها بطريقة قصصية جذابة، وبعضها الآخر يتمثل في محاولة الإقناع بكثرة التفاصيل ودقتها -برغم أن الحلم هنا هو وسيلة توظيف الفن القصصي، لتصوير الواقع ومعالجته، وتحقيق متعة الوجدان وثراء الفكر في هذه القصة التي تناسب مرحلة الطفولة المتأخرة.

رابعاً: المتغيرات

إن محاولة تحديد مفهوم لهذا المصطلح، قد يكون فيه تضييق له، لأنه يختص بكل العوامل والملابسات التي جعلت من أدب الطفل والاهتمام بأنواعه الأدبية، وتفاعلها مع الحياة، وفاعليتها فيها ملمحاً ثقافياً حضارياً، لذلك يمكن اعتبار العناية بأدب الأطفال نفسه متغيراً من هذه المتغيرات؛ ذلك أن رعاية الطفل من النواحي النفسية والتربوية والإبداعية لم تكن بذات قيمة عند الكبار، قبل العصر الحديث، كما أن المجتمع العربي كان مجتمع الرجل، الذي تدور حوله الفنون والآداب، من ثم فقد أصبح أدب الأطفال حبيس المنازل، لا يحيا إلاّ عند الأُمهات والمربيات والخدم، إن جاز لنا أن نسمي ما كان موجوداً من حكايات وهدهدات وترنيمات أدباً للأطفال.

ولعل من الأسباب التي جعلت - مثلاً - الشاعر أحمد شوقي لا يستمر في تحمسه للكتابة في أدب الأطفال، أنه لم يجد من يشاركه حماسه، ويؤازره بجهوده، لا سيما وقد طلب من الشاعر خليل مطران ذلك، لكنه لم يستجب له، كما سبق أن أوضحت، كما أن مردود الكتابة في أدب الأطفال لم يكن يكفي لتحقيق المجد الأدبي، بل على العكس من ذلك، كان ينظر إليه وإلى كتابه، والمهتمين بالأطفال بشيء من الاستخفاف والاستهانة، وما أكثر

الذين أخفوا أسماءهم وهم يكتبون في أدب الأطفال في أدبنا العربي، وغيره من الآداب الأجنبية، في مطالع عصر النهضة.

هذا برغم أن الإسلام قد أوصى بكثير من المبادئ والقيم التي تولي قدراً كبيراً من الرعاية والعناية بالطفل، منذ تخلقه جنيناً حتى ميلاده، يقول ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس»، ثم نشأته ونموه، سواء في اشتراط تحقق الكفاءة بين الزوجين، لخلق أنسب بيئة نفسية واجتماعية لنشأته، إلى وضع الشروط والمعايير التي يجب أن تراعى في تسميته، ورضاعته، وحضانته، وناهيك بنهي القرآن الكريم عن قتل الأبناء، وتوجيهات الرسول ﷺ في هذا المجال، وضربه القدوة الصالحة في تربية الأولاد، وتعليمهم القرآن الكريم، وأمور الدين، ثم كانت مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيما يروى عنه «علموا أولادكم السباحة والرماية ورووهم الأشعار»، وغير ذلك مما يذكر لصحابة رسول الله رضوان الله عليهم، وكلها ملاحظات وتوجيهات تولي الاهتمام كله لتنشئة الأبناء تنشئة حسنة صالحة؛ جسمياً وفكرياً ونفسياً، ورعاية مواهبهم وصقل ألسنتهم بقراءتهم القرآن الكريم والشعر، حتى إن بعض العرب استمروا بعد مجيء الإسلام في إرسال أبنائهم وتنشئتهم صغاراً في البادية، لدى العرب الخلص، حتى يجيدوا اللغة العربية، وقد كانت تلك عادة جاهلية، ولقد قدم الإمام أبو حامد الغزالي في الباب الأول من كتابه «إحياء علوم الدين»، وهو «باب العلم» كثيراً من التوجيهات

والنصائح التي يمكن أن تفيد في هذا المجال. وكل هذا يلتقي مع ما نبتغيه من الاهتمام بأدب الأطفال.

لكن كل ما سبق من توجيهات ونصائح وملاحظات لم تؤخذ في غير زمانها المأخذ المناسب، ولم تحظ بما تستحق من اهتمام وتقدير. ولم يبرز تحمسنا لأدب الأطفال إلاّ حديثاً بعد أن قطع الغرب شوطاً في تطويره والاهتمام به، ونما وعينا وارتقى، وبدأنا ندرك أهمية الرعاية النفسية والتربوية والإبداعية للطفل، وربما يفسر لنا ذلك ما يقال من أنّ أدب الأطفال قديم جديد في أدبنا العربي؛ قديم بالنظر إلى ما كان موجوداً في الماضي من هدهدات وترنيمات وحكايات، وجديد عندما أصبح شكلاً من أشكال التعبير، له أُصوله وأُسسه، ومبادئه وأنواعه، وغاياته واتجاهاته[1]، التي تجلت فيما خصص له من كتب ومجلات وحلقات دراسية، ومعاهد علمية ومكتبات تهتم بأبحاثه ودراساته وتخريج الباحثين والمتخصصين فيه.

وقد اقترن ذلك بكثير من التطورات التي تفاعلت معها الثقافة بصفة عامة، والأدب بصفة خاصة، من هذه التطورات: ازدهار التعليم ورقي الوعي، وسرعة الاتصالات على مستوى العالم، ثم كانت النقلة الهائلة من الأرض إلى الفضاء، حيث أخذ

(١) انظر ذكاء الحر «الطفل العربي وثقافة المجتمع» ط١ سنة ١٩٨٤ دار الحداثة بيروت - صفحة ٢٥ وكذلك انظر د. علي الحديدي «محنة أدب الأطفال» كتاب العربي: الكويت العدد ٢٣-١٥ أبريل سنة ١٩٨٩ صفحة ١٦٩.

الإنسان في التجوال والبحث، واكتشاف كثير من الظواهر التي رصدتها كتب أدب الأطفال، فيما سمي بأدب الخيال العلمي الذي تجاوز الكبار إلى الصغار، ولقد كان الحاسوب (الكمبيوتر)، بإمكاناته الهائلة، في خدمة العلم والإنسان امتداداً للخط البياني الصاعد، الكاشف عن تقدم الإنسان وسيطرة التكنولوجيا على كثير من جوانب الحياة.

ويمكننا أن نشير إلى بعض نماذج أدب الأطفال التي رصدت هذه المتغيرات، وحاولت من خلال التعبير الجميل الملائم لمستويات الأطفال أن تثري ثقافتهم، وتصلهم بكثير من هذه المتغيرات، وتحقق ما نبتغيه من الأدب لأطفالنا من رقي الفكر، ومتعة الوجدان، وسعة الخيال، وعمقه، وتهيئتهم لمواجهة حياتهم بمتغيراتها مواجهة سوية.

وإذا كانت المتغيرات السابقة وهي قليل من كثير قد شغلت أدب الكبار، فقد اتصل بها أيضاً أدب الأطفال، فرقي الوعي وترقية العقل، وتنبيه الأُمة إلى حقوقها وواجبها تجاه المستعمر، كان أحد اهتمامات أدب الكبار، ونجد نظيراً لذلك في أدب الأطفال، فالشاعر أحمد شوقي في مقطوعته «الفيل وأُمة الأرانب» يحث على الاتحاد والتشاور لمواجهة المحتل الدخيل، بأسلوب قصصي لا تنقصه الحبكة الفنية، ولا العقدة والحل، بعد

أن يرسم البيئة رسماً فنياً يهيئ الحدث للنمو، والشاعر يتخذ من التقابل محوراً يبني عليه قصته، ذلك أن أُمة الأرانب، بصغر أجسامها قد سعدت بموطنها «موئل العيال والحريم»، لكن الفيل الضخم القوي يتخذه طريقاً إلى مشربه ومرعاه، ممزقاً ما شاء من هذه الأرانب، التي تنقلب سعادتها حزناً، وما كان منها إلاّ أن تشاورت بناء على اقتراح عقلائها، بعد أن اشتدت الأزمة، وانتهوا إلى رأي أحد حكمائهم الثلاثة، بحفر هوة سحيقة يهوي الفيل فيها عند مروره، فيستريحون من شروره، ويتضح ذلك في قوله في هذه القصة:

وانتدبَ الثالثُ للكلام ... فقال: يا معاشرَ الأقوام
اجتمعوا فالاجتماع قوة ... ثم احفروا على الطريق هوَّة
يهوي إليها الفيلُ في مرورِه ... فنستريح الدهرَ من شرورِه
ثم يقول الجيلُ بعد الجيلِ ... قد أكل الأرنبُ عقلَ الفيل!
فاستصوَبُوا مقاله واستحسنوا ... وعملوا من فورهم فأحسنوا
وهلكَ الفيلُ الرفيعُ الشان ... فأمست الأمَّةُ في أمانِ[1]

ويكتمل الحل «اكتمالاً فنياً نابعاً من تطور الأحداث» برغم بساطته، مع وضوح جانب العدل فيه، إذ تقبل الأرانب على

(١) ديوان شوقي للأطفال إعداد وتقديم عبدالتواب يوسف دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٤م صفحة ١١٦.

صاحب الرأي الصائب لتكافئه، بجعله ملكاً عليها، لكنه يرى أن الذي يستحق المكافأة فعلاً، هو أول من دعا الأرانب إلى التجمع والتشاور، لمواجهة الأزمة، وذلك حل يحقق عدة أغراض دينية وفنية ونفسية، فهو أولاً مستمد من تطور الأحداث، وثانياً، يرضي إحساساً لدى الأطفال بمكافأة المخلص المصيب، وهو ثالثاً يشبع لديهم الرغبة في تحقق العدل وهو على هذا النحو قيمة إسلامية، مما يحقق تجاوباً فاعلاً بين الأطفال والنص:

وأقبلت لصاحبِ التدبير ساعية بالتاج والسرير
فقال مهلاً يا بني الأوطانِ إن محليٌ للمحل الثاني
فصاحب الصوت القوي الغالب من قد دعا «يا معشر الأرانب»[1]

وبرغم أن «الرمز» هنا يمكن أن يتجاوز الصغار للكبار، وهو الحث على مواجهة المستعمر الذي كان جاثماً على مصر، والتشاور والاتحاد للتخلص منه، لكنه في متناول أطفال مرحلة الطفولة المتأخرة، ونهاية مرحلة الطفولة المتوسطة، إذ بإمكان أطفال هذه السن المقايسة والمناظرة وإعطاء الأدلة، والبراهين، وإدراك العلاقة بين الرمز والواقع، كما يرى بياجيه[2]، مما يؤكد نجاح مثل هذا النص في تحقيق كثير من أهدافه الدينية والإنسانية والنفسية والتربوية والفنية الجمالية.

---

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٢) انظر تطور الطفل عند بياجيه صفحة ٨٤، وانظر د. عواطف إبراهيم محمد «العلوم لسن ما قبل المدرسة» الثقافة العلمية في كتب الأطفال الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٤- الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥.

أما الهدف الجمالي الإبداعي ففي ذلك النص نواح عدة تحققه؛ لعل في مقدمتها هذا التوظيف الموسيقي لكلمات لا تتجاوز قاموس الطفل اللغوي - بالنسبة لمرحلة الطفولة المتأخرة-، إلاّ في القليل الذي يحتاج إلى إيضاح بالنسبة لبعض الأطفال، وعنصر الموسيقا ذو تأثير مزدوج، فهو يعين على حسن استيعاب النص بأفكاره، مما يثري فكر الطفل وثقافته، وإيلاف أذن الطفل له صقل لهذه الحاسة، وغرس لما في الموسيقا من جمال في نفس الطفل.

كما يمثل «الحوار» بين الأرانب تجسيداً لكثير من القيم الإنسانية الإسلامية، كالتشاور والاتحاد والإيثار، بصور خيالية متعددة، تتغيا بجانب النواحي الفكرية التثقيفية، ثراء الجانب الجمالي التصويري، وإمتاع وجدان الأطفال، الذي يضاعف منه العنصر القصصي وما يزخر به من تشويق، في تصدي الضعيف المظلوم بالحيلة والتفكير، للقوي الظالم، وانتصار الأول وهزيمة الثاني، لا سيما عندما يتم ذلك خلال نمو الحدث وتعقيده، مما يجذب انتباه الأطفال.

كما نجد في «ديوان الشاعر إبراهيم العرب للأطفال» مقطوعات تستهدف توعيتهم بكثير من القيم كالحرية[١]، والحرص على التعليم، والتفكير، والبحث ورفض التقليد[٢]، وكلها قيم يهتم بها الكبار، ويحاولون غرسها في الصغار، وهي في الوقت نفسه قيم

(١) ديوان إبراهيم العرب للأطفال دراسة وتقديم عبد التواب يوسف الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠ صفحة ٢٧٦.

(٢) السابق نفسه صفحة ١٩٣.

يوليها الدين اهتماماً خاصاً، ولها في عصرنا إيقاع مرتبط بما فيه من منجزات ومتغيرات.

ويتضمن «ديوان الأطفال لمحمد الهراوي» عدة منظومات شعرية؛ في وسائل المواصلات الحديثة؛ كالطائرة والقطار والترام، وبعض المخترعات الأخرى كالمسرة وغيرها، وذلك من صفحة ٢٠٦ إلى صفحة ٢٢٠، بهدف تعريف الأطفال بها، وإحاطتهم بمزاياها كلون من ألوان التثقيف، لكن صياغتها لا تخلو من بعض لمسات جمالية تصويرية، تضاف إلى الشكل الموسيقي، كما في منظومته «طيارة»، وكلا العنصرين الموسيقا والتصوير يتآزران في هذه المنظومة ليكسباها شيئاً من اليسر في الحفظ والاستيعاب، وصقل موهبة التذوق، وفيها يقول[1]:

سفينةُ الهواءِ ... تطيرُ في الفضاءِ
تسيرُ في الرِّياحِ ... مبسوطةَ الجناحِ
منظرُها في الجو ... كالطائرِ المدوّي
تئزُّ وهي طائرة ... مثل أزيزِ القاطرةْ
ريانُها يرفُعها ... بآلةٍ تدفَعُها
يجتازُ فيها الأُفُقَا ... يخطُّ فيه طُرقا
وقتَ الحروبِ نقمةٌ ... وفي السلام نعمةٌ
وهكذا ابن آدمِ ... أُعجوبةٌ في العالمِ

(١) ديوان الهراوي للأطفال جمع ودراسة عبد التواب يوسف الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٥ صفحة ٢٠٦.

وهذه المنظومة تناسب مرحلة الطفولة المتوسطة، وذلك لقصرها، وخفتها الموسيقية، ولغتها ليست صعبة في نطقها أو معناها.

وبرغم أن هذه الوسائل والمخترعات قد أصبحت الآن عادية، وبعضها قد تجاوزها العصر، لكن الكتابة فيها للأطفال عندما كتبها الشاعر في النصف الأول من هذا القرن، تكشف عن التفاعل بين أدب الأطفال ومتغيرات الحياة، وأن هذه المتغيرات مثيرة ومصدر من مصادر هذا الأدب.

وفي قصة «رحلة إلى القمر» لأحمد نجيب التي سبقت الإشارة إليها في المصدر السابق وهو الترجمات[1]، نجد عدة إشارات إلى القمر وما عرف عنه من خلوه من الهواء والحياة، وبعض قوانين الجاذبية المتعلقة بالأجرام السماوية، وكيفية مواجهة هذه الظواهر، لكن الكاتب يقدمها خلال حلم في رحلة إلى القمر وسيلتها «المركبة القمرية»، التي تدور في الفضاء، حتى تتصل بسفينة الفضاء، التي ترتفع من الأرض إلى المركبة أو تهبط منها عائدة إلى الأرض، حاملة البشر من رواد الفضاء وما يحتاجون إليه، وفي هذا الحشد من الحقائق العلمية، تقل الصور الخيالية، برغم توظيف الكاتب الإطار القصصي والحلم والسحر سبيلاً إلى عقل الطفل ووجدانه، وهي صور عمادها التشبيهات البسيطة، ويمتزج فيها الطيور بالبشر بالشخصيات الخيالية في

(١) انظر صفحة ٦١ من هذا الكتاب.

توافق إنساني أخّاذ: «وترك العصفور أصدقاءه يلعبون مع بنات القمر... وسار ينظر ويتعجب مما يرى... ولفت نظره لون السماء.. إنها كانت سوداء كالفحم، ولكن فيها كثيراً من النجوم اللامعة.. والتفت إلى الأرض، فرآها من بعيد تضيء كأنها قمر منير مستدير، ولكنه أكبر من القمر العادي أربع عشرة مرة.. وبقي العصفور يمشي مدة طويلة، حتى ابتعد عن أصدقائه.. وعندما أراد أن يرجع إليهم.. لم يعرف الطريق»(٨٢).

ونلفت النظر هنا إلى توظيف الكاتب للنقاط المتتابعة، كوسيلة لتدفق تيار الوعي، مما يثري فاعلية تتابع الحدث، كما يلاحظ قصر الجُمَل التي تتآزر مع الوسائل السابقة: الصور، والحقائق والإطار القصصي، والنقاط المتتابعة، وغير ذلك، لتشكيل بناء قصصي يحقق أهداف القصة في أدب الطفل دينياً ووجدانياً وثقافياً بصفة عامة، وهكذا يتضح دور المتغيرات كمصدر هام من مصادر أدب الطفل.

* * * * *

ونستطيع الآن، أن نقدم تحليلاً لبعض النماذج من أدب الأطفال، بأجناسه المختلفة من: مسرحية وقصة ومنظومة، للكشف عن أهم سماته.

(٨٢) أحمد نجيب «رحلة إلى القمر» صفحة ١٨.